

الفصل الخامس عشر

القضاء المحتوم (١٠ فبراير سنة ١٩٠٨م)

كانت صحة الفقيده يعترها التعب والاعتلال من الجهد الذي حملها إياه، وتدل رسائله الخاصة على أن صحته كانت في حاجة إلى الراحة والعلاج قبل الوفاة بعدة سنوات؛ ولكنه كان ماضيًا في سبيله، لا يبالي أن يحملها ما لا تطيق من التعب والعناء. كتب إلى مدام «جوليت آدم» من فيشى في (٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣م) يقول:

«يجب أن أقضي معظم هذا الشهر في (التيروول) مع صديقي فريد بك الذي تشرفت بتعريفه إليك منذ سنتين؛ لأن الأطباء قد رأوا أنه من الواجب أن أمضي في الجبل بعض الزمن؛ إذ أخذ التعب يستولي على أعصابي، ولهم الحق في ذلك فإني لم أشفق على نفسي».

وكتب إليها في (٢٥ يونية سنة ١٩٠٥م) كتابًا قال فيه:

«إن العمل قد أضناني إلى حد أشعر معه بسرعة الحاجة إلى ترك الوسط الذي أعيش فيه، وكأن الطبيعة قد خالفت سنتها، إذ جعلت قوة روحي أكبر من قوة جسمي».

وقد سافر في يولية من تلك السنة إلى أوروبا وقصد إلى لوزان وعرض نفسه على الدكتور بورجيه ليعالجه من مرض في أمعائه كان يشتد به أحيانًا فيؤلمه كثيرًا، وفي (صيف سنة ١٩٠٦م) ذهب إلى أوروبا للاستشفاء والعلاج، وكان في حاجة قصوى إلى الراحة؛ ولكن حادثة دنشواي جعلته يقطع على نفسه سبيل الراحة والعلاج، فنهض نهضة الأسد، وبذل تلك الجهود الهائلة التي لا تصدر إلا عن أقوى الناس صحة وجسمًا. ولما سافر إلى باريس ولندن في (شتاء سنة ١٩٠٦م) يصحبه محمد بك فريد لاختيار محرري جريدتي ليتندار إجبسيان وذى إجبشيان ستندارد عاوده المرض في أثناء الرحلة، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عاد بعدها إلى الجهاد والكفاح.

وفي (صيف سنة ١٩٠٧م) ذهب إلى فرنسا كعادته كل عام للاستشفاء والجهاد، وكانت هذه آخر رحلة له بأوروبا، وكان يشعر بدبيب المرض يعتره أحيانًا. أذكر المسيو أدولف ادريير (مراسل الاتيندار في باريس) أنه قابله وقتئذ بباريس فكان يقول له: «إني أشعر أن المرض قد دب إليّ. ترى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لجهودي؟ ليحصد الآخرون نتائج جهودي، ولكن ليكن لي وقت كاف للغرس والزرع، وكان هذا القول نذيرًا بخطورة مرضه، وقد قابله في شهر أغسطس في إفيان على بحيرة جنيف حيث قصدها للعلاج، وكان يلزمه أن يمكث بها واحدًا وعشرين يومًا للاستشفاء بحماماتها، ولكنه لم يمكث بها غير عشرة أيام لشعوره بضعف قواه، فسافر إلى أعالي جبال سويسرا، ولم يلبث بها غير بضعة أيام؛ لأنه لم يكن يستريح أينما توجه، قال المسيو ادريير: «وجاء شهر سبتمبر فعدت وإياه إلى باريس ولم أتركه حتى ساعة سفره، وكان دائمًا متوعك الصحة، فكنت أرى هذا الوجه الذي ترسم عليه الشجاعة والذكاء والإقدام ممتعًا شاحبًا، وقد سافر منهوگًا إلى حيث لا يعود إلينا أبدًا».

وقد عاد الفقييد إلى مصر في (أكتوبر ١٩٠٧م)، فقابله الشعب بأعظم مظاهره قبول بها في حياته، وأخذ يبذل الجهود الجبارة لتنظيم الحزب الوطني حتى إذا لم يكن في عمره متسع، لا يخشى عليه من الانحلال، وألقى خطبته الشهيرة بالإسكندرية يوم (٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م)، وعلامات الضعف بادية على محياه، وقد لمحها أصدقاؤه الأقربون.

واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر، ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الأبطال، ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطني يوم (٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧)، ترك سرير مرضه ونزل إلى ساحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية، وألقى خطبته كأقدر وأقوى خطيب، حتى دهش السامعون بلاغته وبراعة إلقائه وقوة جنانه، مع ما كان باديًا عليه من الضعف. وكانت هذه آخر خطبة ألقاها رحمه الله، ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع وعاد إلى غرفته مريضًا ولم يغادرها، وقد

بلغه في صباح اليوم التالي للاجتماع نبأ وفاة صديقه ونصيره الكبير «لطيف باشا سليم» أحد مؤسسي الحزب الوطني وأحد أعلام الحركة الوطنية، فجزع لوفاته جزعاً شديداً، وازداد ما به من المرض حزناً على صديقه العظيم.

وكان وهو على سرير المرض لا يدع العمل والتفكير؛ فقد أرسل وهو طريح الفراش قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجاً برقياً قوياً ضد تصريحات فاه بها السير إدوارد جراي في مجلس العموم البريطاني اتهم فيه المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتي، فرد عليه بأن مصر تماثل في الاستعداد للحكم الذاتي كثيراً من الأمم الأوربية، وأن مصر ستظل تجاهد في سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالها.

الوفاة

وأخذ المرض يشتد ويلح عليه حتى أعىى الطب والأطباء، إلى أن حُتمَّ القضاء، وأسلم الفقيد الروح في الساعة الرابعة من عصر يوم الإثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ (٨ محرم سنة ١٣٢٦هـ)، فانتشر نعيه بسرعة البرق في العاصمة والأقاليم، وطيرت الأسلاك البرقية خبره إلى الخارج، وملاً النبأ الفاجع جنبات وادي النيل، ويا لها من لحظة رهيبة حين فوجئنا بالنعي ونحن في مدرسة الحقوق، فقابلناه بالذهول والوجوم، وفاضت دموعنا حزناً وأسى على الفقيد الذي كان لنا إماماً وطنياً وأباً روحياً، وما كاد يذيع نعيه حتى عمَّ الحزن أرجاء مصر، فكان له في كل نفس مناحة وفي كل قلب ماتم.

جنازة الزعيم

كان الاحتفال بتشييع جنازة مصطفى كامل يوماً مشهوداً في تاريخ الحركة الوطنية، كان مظهرًا رائعًا لشعور الوطن نحو الزعيم، انبعث من القلوب المكلومة والأفئدة الحزينة لفقده، أرادت الأمة أن تشيعه إلى مقره الأخير، وأن تظهر وفاءه ل باعث نهضتها الوطنية، وموقفها من رقدتها، وأدرك الناس كافة حتى الذين كانوا لا

يؤمنون برسالة مصطفى كامل أن بطلها وزعيمها الشاب جدير حقًا بتقدير الوطن، ولم يكن هذا الشعور مقصورًا على طبقة دون أخرى، بل تناول طبقات الأمة كافة، شمل المتعلمين وغير المتعلمين، وتناول الكبار والصغار، والرجال والنساء.

لم يكذب يذاع خبر الوفاة بين طلبة المدارس حتى قرروا بمحض شعورهم اعتبار يوم تشييع الجنازة يوم حداد عام، عطلت فيه المدارس كلها حزنًا على الزعيم، وقرروا جميعًا الاشتراك في الجنازة التي حدد لها (عصر يوم الثلاثاء ١١ فبراير)، فسرنا فيها جميعًا مدفوعين بشعور واحد؛ شعور الحزن للفجيعة، والوداع للراحل العظيم.

ومع عظم منزلة الفقيد لم يكن متوقعًا أن تكون الجنازة بالضخامة والروعة والعظمة التي تجلت فيها، وكان مقرّرًا أن تسير من طريق سراي عابدين ومنها إلى باب الخلق فمدافن الإمام الشافعي. واختير هذا الطريق بدلًا من طريق السيدة زينب؛ التماسًا لاتساع الشوارع وطولها منعًا للزحام، ولكن بوادر الحال دلت على أن هذه الشوارع مهما اتسعت فإنها لا تكفي للجموع الزاخرة والألوف المؤلفة التي قدمت من نواحي العاصمة كافة، ومن الضواحي والثغور والأقاليم، واكتظت بها الشوارع المحيطة بدار اللواء قبل الموعد المحدد لتشييع الجنازة بأربع ساعات، فرؤي إلغاء القرار السابق واختيار أطول طريق للجنازة بين دار اللواء ومدافن الإمام؛ ليتسنى للجموع الحاشدة الاشتراك فيها، وهو طريق شارع الدواوين (نوبار باشا الآن) حيث كانت دار اللواء^(١)، فشارع المدابع، فشارع المناخ، فميدان الأوبرا، فشارع البوستة، فميدان العتبة الخضراء، فشارع محمد علي (القلعة الآن)، فميدان المنشية (صلاح الدين الآن)، ومنه إلى مدافن الإمام. وهذه المسافة لا تقل عن اثني عشر كيلومترًا. وخصصت حكمدارية بوليس العاصمة أكبر قوة من العساكر المشاة والفرسان وأضاف إليها عددًا كبيرًا من جنود الاحتياطي وقلم المرور؛ لتنظيم سير الجنازة،

(١) مكان مدرسة عابدين الابتدائية الآن.

وأوقفت عددًا آخر من البوليس في منافذ الطرق على طول الخط للمحافظة على النظام؛ ولكن كل تقدير لعظم الموكب كان أقل من الواقع.

وأخذ العظماء والكبراء والمثقفون وطبقات الأمة كافة يفدون إلى دار اللواء حتى غصت بهم على سعتها، وفاض جمعهم المتدفق إلى شارع الدواوين فملاؤه، ثم ضاق بجموعهم الزاخرة، فامتألت بهم الشوارع المجاورة، وتعطل المرور من جميع الشوارع التي تتصل بطريق الجنازة، وأوقفت مركبات الترام في جميع خطوط العاصمة، وما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر - وهو الوقت المحدد للبدء بسير الجنازة - حتى لم يبق موضع لقدم، وبدأت الجنازة في المسير، فتقدم المشهد الجنود الفرسان، فتلاميذ مدرسة «مصطفى كامل»، فالمدارس الابتدائية الأميرية والأهلية، فطلبة مدرسة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي، فالمدارس الثانوية - وهي التوفيقية والخديوية والسعيدية - وكثير من طلبة مدرسة رأس التين بالإسكندرية، ومدرسة عبد العزيز والمدرسة الإلهامية، ومدارس الأقباط الكبرى، وفيكتوريا والفيرير، ثم المدارس العليا وهي: الحقوق والطب والمهندسخانة والزراعة والصنائع، ثم عساكر البولس وتلاميذ مدرسة البوليس، ثم نعش الزعيم مغطى بالراية المصرية، محمولاً على أعناق طلبة مدرسة الحقوق، مندوبين لذلك من قبل جميع طلبة المدارس العليا. وكانت كل مدرسة تحمل علمًا مجللاً بالسواد وفيه شارة تدل عليها، وقد صنعت هذه الرايات خصيصًا للاشتراك في الجنازة. كما أن مدرسة الزراعة رفعت أمامها شجرة مجللة بالسواد، ثم سار المشيعون خلف النعش، يتقدمهم المرحوم «محمد بك فريد»، وكان عددهم في بدء الجنازة يزيد على عشرات الألوف، إلا أن ذلك الجمع الهائل لم يكن إلا قطرة من بحر من انضم إلى الجنازة أثناء مسيرها، حتى زحرت الشوارع بالمشيعين. ولما تعذر سيرهم في موكب الجنازة وقف معظمهم على جانبي الشوارع من دار اللواء إلى مدفن الفقيد، وبلغ عدد المشيعين نحو (٢٥٠,٠٠٠) ربع مليون نفس؛ عدا الألوف الذين كانوا على جانبي الطريق، وفي نوافذ المنازل والفنادق وشرفاتها، وفوق أسطحها، وفي المنعطفات المترامية الأطراف.

وجملة القول: إن الشوارع الواقعة بين دار اللواء وقبر الفقيد كانت العين لا تقع فيها إلا على أجسام متراسة من المشيعين، أو كتعبير المسيو «ريمون كولرا» مدير جريدة (إيجبت) في وصف الجنازة: «إن شوارع القاهرة فيما بين دار الفقيد وقبره كانت مفروشة ببساط أحمر، إشارة إلى الطرابيش الحمراء، ومع اشتداد هذا الزحام الذي لم يسبق له نظير، كان النظام مستتباً، والسكون شاملاً رهيباً، ولم يكن يسمع أثناء سير الجنازة سوى بكاء الباكين والباقيات وزفرائهم، ونواحهم الصادر من أعماق قلوبهم، وكلهم يبكي شباب الزعيم ووطنيته، فكان هذا الاحتفال الرهيب أعظم وأروع جنازة في تاريخ مصر الحديث، وصفها المرحوم قاسم أمين بقوله: «١١ فبراير سنة ١٩٠٨م يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق؛ المرة الأولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواي، أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً في قوة جماله، وانفجر بفرقة هائلة سمع دويها في العاصمة، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر، هذا الإحساس الحديد، هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي يتسم في وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة، هو المستقبل».

سارت الجنازة حتى جامع «قيسون» بشارع محمد علي حيث أقيمت الصلاة على الفقيد، ثم تابعت سيرها في بحر زاخر من الجموع والدموع حتى مدفن الزعيم بقرافة الإمام الشافعي، واستمر سيرها أربع ساعات، لما وصلت ساحة المدفن كانت على رحبتها غاصة بفريق من المشيعين ممن سبقوا الموكب تفادياً من الزحام وتعذر دخول الجموع الحاشدة إلى رحبة المدفن، وأبى طلبة المدارس إلا أن يدخلوا ولما لم يكن ذلك ميسوراً لاشتداد الزحام، انتدبت كل مدرسة وفداً ينوب عنها، وكان حملة النعش منهم قد كثر عددهم، وأبوا إلا أن يظلوا حاملية داخل المدفن حتى حافة الضريح الطاهر، فأجبيوا إلى طلبهم بعد تذليل الصعاب في إجابته؛ إذ كان الزحام الهائل داخل رحبة المدفن يحول دون ذلك.

وعندما اجتاز النعش ساحة المدفن وأدخل مكان الضريح ووضع على حافته
ضجَّ المكان بالبكاء والنحيب، وفي هذا الوقت وقف الشاعر الكبير «إسماعيل صبري
باشا» - وكان صديقاً حميماً للزعيم - ليلقي كلمة الوداع، فألقى البيت الأول منها
وهو:

أداعي الأسي في مصر ويحك داعيا هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا
ولم يكد يلقيه حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء، ولم يتم رثاءه.

قصيدة حافظ إبراهيم

ثم قام شاعر النيل «حافظ إبراهيم» وألقى قصيدته الرائعة في رثاء الفقيد، قال:

أي قبرٌ هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل والقر ضيفك جايا
عزيزٌ علينا أن نرى فيك مصطفى شهيد العلا في زهرة العمر ذاويا
أي قبر لو أننا فقدناه وحده لكان التأسى من جوى الحزن شافيا^(١)
ولكن فقدنا كل شيء بفقده وهيهات أن يأتي به الدهر ثانيا
فيا سائلي أين المروءة والوفا وأين الحجا والرأي؟ ويحك ها هيا
هنيئاً لهم^(٢) فليأمنوا كل صائح فقد أسكت الصوت الذي كان عاليا
ومات الذي أحيا الشعور وساقه إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا^(٣)
مدحتك لما كنت حيًّا فلم أجد وإني أجيدُ اليومَ فيك المراثيا
عليك^(٤)، وإلا ما لذا الحزن شاملاً وفيك، وإلا ما لذا الشعب باكيا

(١) التأسى بمعنى الصبر على المصيبة.

(٢) يريد الإنجليز.

(٣) استحيا: أي أحيا.

(٤) عليك: أي عليك الحزن.

لما فيه من داء النفوس مداويا
 فأشهدتنا حزناً وأمسيّت غافياً^(٢)
 يرُنُّ كما قد كان بالأمس داويا
 فلا تهدموا بالله ما كنتُ بانيا
 قضيتُ وأن الحيّ قد بات خاليا
 وكونوا رجالاً لا تسروا الأعاديا
 تشارفكم^(٣) عني وإن كنت باليا
 أخاف عليكم في الخلاف الدواهايا
 على العهد ما دمنافنم أنت هانيا
 وصوتك مسموعٌ وإن كنت نائيا
 أخو البأس في بعض المواطن باكيا
 ترانا كما تهوى جبالاً رواسيا
 دمًا أحمرًا لا كنت يا نيلُ جاريا
 إلى الحشر لا زال انحلالك باقيا
 ثقوا أن نجم السعد قد غار هاويا
 بجيد الليالي ساطعات زواهايا
 فتى مفردًا بل كنت جيشًا مغازيا

يموت المداوي للنفوس ولا يرى
 وكنا نيامًا حينما كنت ساهدًا^(١)
 شهيد العلا، لا زال صوتك بيننا
 ييبُّ بنا: هذا بناءً أقمته
 يصيح بنا: لا تشعروا الناس أنني
 يناشدنا بالله ألا تفرقوا
 فروحي من هذا المقام مطلة
 فلا تحزنوها بالخلاف فإنني
 أجل أيها الداعي إلى الخير إننا
 بناؤك محفوظٌ وطيفك مائلٌ
 عهدناك لا تبكي وتنكر أن يُرى
 فرخص لنا اليوم البكاء وفي غد
 فيا نيلُ إن لم تجر بعد وفاته
 ويا (مصر) إن لم تحفظي ذكر عهده
 ويا أهل (مصر) إن جهلتم مصابكم
 ثلاثون عامًا^(٤) بل ثلاثون ذرة
 ستشهد في التاريخ أنك لم تكن

(١) ساهدًا: ساهرًا.

(٢) غافياً: أي نائمًا.

(٣) تشارفه: أي تنظر إليه من علو.

(٤) إشارة إلى عمُر الفقيه، وهو رقم تقريبي؛ لأنه توفي في الرابعة والثلاثين من عمره.



ثم وقف المرحوم «أحمد أفندي حلمي» أحد محرري اللواء ومن خاصة تلاميذ الزعيم، وألقى كلمة مؤثرة في وداعه، ثم أنزل جثمان الفقيد إلى مثواه الأخير بين الضجيج والنحيب، ووضع المشيعون الأزهار والرياحين على قبره، وعادت الجموع تبكي زعيم الحركة الوطنية، ولبست العاصمة في ذلك اليوم الرهيب ثوب الحداد العام.

رثاء الزعيم وحفلات التأبين

اهتزت البلاد وروعت لوفاة الزعيم؛ فجادت قرائح الشعراء والأدباء والكتاب بالمراثي الصادرة من أعماق القلوب، وممن رثاه من أعلام الأدب «شوقي بك» أمير الشعراء، وكان من أصدق أصدقائه وأكثرهم إعجاباً به، وقد حزن عليه حزناً شديداً، وترجم عن شعوره بقصيدة تجلّت فيها حكمة الشعر وروعة البلاغة، نشرت يوم (٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨م) عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوماً، فأثرت في النفوس تأثيراً عميقاً، وجددت أحزان الأمة، نشرها هنا لأنها قطعة من تاريخ الزعيم، وصورة حية بريشة أمير الشعراء.

رثاء شوقي لمصطفى كامل (الحياة في الموت)

المشرقان عليك يتحبان
يا خادم الإسلام أجز مجاهد
لما نعت إلى الحجاز مشى الأسى
السكة الكبرى^(١) حيال رباهما
لم تألها عند الشدائد خدمة
ياليت مكة والمدينة فازتا
ليرى الأواخر ذاك ويسمعوا
جار التراب وأنت أكرم راحل
أبكي صباك ولا أعاتب من جنى
يتساءلون أبالسلال قضيت أم
الله يشهد أن موتك بالحجا
إن كان للأخلاق ركن قائم
بالله فتش عن فؤادك في الثرى
وجدانك الحي المقيم على المدى
الناس جار في الحياة لغاية
والخلد في الدنيا وليس بهين
فلو أن رسل الله قد جبنوا لما

قاصبيها في ماتم والسداني
في الله من خلد ومن رضوان
في الزائرين ورؤع الحرمان
منكوسة الأعلام والقضبان
في الله والمختار والسلطان
في المحفلين بصوتك الرنان
ما غاب من قس ومن سحبان^(٢)
ماذا لقيت من الوجود الفاني
هذا عليه كرامة للجاني^(٣)
بالقلب أم هل مت بالسرطان
والجد والإقدام والعرفان
في هذه الدنيا فأنت الباني
هل فيه آمال وفيه أماني
ولرب حيي ميت الوجدان
ومظلل يجري لغير عنان
عليا المراتب لم تتح لجبان
ماتوا على دين ولا إيمان

(١) يريد سكة حديد الحجاز.

(٢) قس وسحبان: خطيبان من أبلغ خطباء العرب.

(٣) الجاني إشارة إلى الفقيد؛ أي أنه ضحى بحياته وشبابه في سبيل مصر.

جُعِلت لها الأخلاق كالعنوان
 قصر يريك تقاصر الأقران
 إنَّ الحياة دقائق وثوان
 فالذكر للإنسان عمر ثانٍ
 ماشاء من ربح ومن خسران
 وهي المضيق لمؤثر السلوان
 يشقى له الرحماء وهو الهاني
 في طيها شجنٌ من الأشجان
 نعى الحياة وبؤسها سيان
 والخطرات والإسرار والإعلان
 غاز بغير مهنّد وسنان
 أن العلوم دعائم العمران
 جنع الهلال على فتى الفتيان
 لكنما يبكي بدمع قاني^(١)
 فكأنما في نعشك القمران
 يختال بين بكى وبين حنان
 ما ضم من عرف ومن إحسان
 وجلالك المصدوق يلتقيان
 وبكتك بالدمع الهتون غواني
 إذ ينصتون لخطبة وبيان

المجد والشرف الرفيع صحيفة
 وأحبُّ من طول الحياة بذلة
 دقات قلب المرء قائلة له
 فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
 للمرء في الدنيا وجم شئونها
 فهي القضاء لراغب متطلع
 الناس غاد في الشقاوة رائح
 ومنعم لم يلق إلا لذة
 فاصبر على نعى الحياة وبؤسها
 ياطاهر الغدوات والروحيات
 هل قام قبلك في المدائن فاتح
 يدعو إلى العلم الشريف وعنده
 لقُوك في علم البلاد منكسًا
 ما احمرَّ من خجل ولا من ريبة
 يُزجون نعشك في السناء وفي السنا
 وكأنه نعش الحسين «بكر بلا»
 في ذمة الله الكريم وبره
 ومشى جلال الموت وهو حقيقة
 شقت لمنظرك الجيوب عقائل
 والخلق حولك خاشعون كعهدهم

(١) قاني أحمر.

بعد المنابر أم بأي لسان
 دفنوك بين جوانح الأوطان
 حملوك في الأسماع والأجفان
 كفن لبست أحاسن الأكفان
 لم تأت بعد رثيت في القرآن
 والداء ملء معالم الجثمان
 قَنِطُ وساعات الرحيل دواني
 دمعُ تعالج كتمه وتعاني
 ويداك في القرطاس ترتجفان
 وأنا الذي هدَّ السقامُ كياني
 وعرفت كيف مصارع الشجعان
 ما للمنون يدكهن يدان
 من أدمعي وسرائري وجناني
 لنظمتُ فيك يتيمة الأزمان
 فتعود سيرتها من الدوران
 وتجمل فوق النيرات مكاني
 فيك القريض وخانني إمكاني
 إنَّ المنية غاية الإنسان
 عزت على كسرى أنوشروان
 فهل استرحت أم استراح الشاني
 هذا ثرى مصر فنم بأمان

يتساءلون بأي قلبٍ ترتقي
 فلو أن أوطاناً تُصوّر هيكلًا
 أو كان يُحمل في الجوارح ميت
 أو صيغ من غر الفضائل والعلی
 أو كان للذكر الحكيم بقية
 ولقد نظرتك والردى بك محقق
 يبغى ويطغى والطبيب مضلل
 ونواظر العواد عنك أمالها
 تملي وتكتب والمشاكل جمّة
 فهششت لي حتى كأنك عائدي
 ورأيت كيف تموت آساد الشرى
 ووجدتُ في ذاك الخيال عزائمًا
 وجعلت تسألني الرثاء فهأكه
 لولا مغالبة الشجون لخاطري
 وأنا الذي أرثي الشموس إذا هوت
 قد كنت تهتف في الورى بقصائدي
 ماذا دهاني يوم بنت فعقني
 هَوْنٌ عليك فلا شمس بميت
 من للحسود بميتة بلغتها
 عوفيت من حَرَب الحياة وحزبها
 يا صَب مصر ويا شهيد غرامها

اخلع على مصر شبابك غاليًا
 فلعل مصرًا من شبابك ترتدي
 فلو أن بالهرمين من عزماته
 علّمت شبان المدائن والقرى
 مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
 أقسمت أنك في التراب طهارة
 والبس شباب الحور والولدان
 مجدًا يتيه به على البلدان
 بعض المضاء تحرك الهرمان
 كيف الحياة تكون في الشبان
 قبر أبر على عظامك حاني
 ملك يهاب سؤاله الملكان

حفلة التأبين الكبرى (يوم الأربعاء)

أقام الحزب الوطني حفلة تأبين كبرى للفقيد يوم الأربعاء لوفاته (الجمعة ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨م)، وألف لجنة لتنظيمها برئاسة المرحوم محمد بك فريد، وقد تجدد الحداد على الفقيد في ذلك اليوم، فكنت ترى معظم المحال التجارية مغلقة وعليها علامات الحداد، والأعلام منكسة تجلّله شارات السواد، وعربات الركوب موقدة المصابيح مجلّلة بأشرطة سوداء، والشباب من فتيان وفتيات لابسين شارات الحداد. وكان محددًا لحفلة التأبين الساعة الثالثة عصر ذلك اليوم بالساحة الواسعة التي تحيط بضريح الزعيم بمدافن الإمام الشافعي، وكان البرنامج أن يتألف موكب الأربعاء ويسير بنظام من دار اللواء بشارع الدواوين (نوبار باشا الآن) إلى مدفن الزعيم، وهناك ينتظره المدعوون للحفلة، فمنذ أخذت وفود الطلبة وجموع الوطنيين يحتشدون في الشوارع المجاورة لدار اللواء، ثم انتظم منهم موكب رهيب يشبه في عظمته وعدده موكب تشييع الجنازة، وسار في نفس طريقها إلى مدافن الإمام، وتقدمه طلبة المدارس الابتدائية، ثم الثانوية، ثم الخصوصية، ثم العالية، ثم الأزهر، ولكل مدرسة علمها، ثم جمعيات الشبيبة وجماعات الصناعات وجمعيات الأقاليم وجمعية النهضة الوطنية ببولاق، تتلوها عربة الفقيد مجلّلة بالسواد لا يركبها أحد علامة على فقد صاحبها العظيم، ثم الوفود من أحياء العاصمة والأقاليم. وبدأ سير الموكب في الساعة الأولى

بعد الظهر تمامًا، وسار بنظام رهيب حتى وصل إلى المدفن في الساعة الثالثة والدقيقة (٤٥)، فكانت مظاهرة حداد قومية لم يسبق لها مثيل. وقد أعد الحزب الوطني مكان الاحتفال بعد أن أزال البناء الذي في تلك الساحة لكي يتسع لعشرة آلاف من المدعوين، وعند الساعة الثالثة بدأ الاحتفال قبل مجيء الموكب، فافتتح بتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم.

خطبة محمد بك فريد

وكان أول الخطباء المغفور له محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني، فألقى الخطبة الآتية:

«إخواني الأعزاء:

إن اجتماعكم هذا لأكبر دليل وأسطع برهان على أن رئيسنا المرحوم مصطفى كامل باشا لم يموت. نعم لم تمت من جمعت كلمته هذه الألوف المؤلفة من الناس؛ بل هذه الملايين العديدة من الخلائق، بعد أن كنت لا ترى اثنين يتفقان على عمل ما، حتى ضرب بتخاذلنا المثل وقالوا: إن المصريين اتفقوا على أن لا يتفقوا. ولكن الفقيده بئ هذه الروح الجديدة بين جميع طبقات الأمة المصرية بثباته وعدم تززع عزمته أمام ما صادفه من العقبات ولاقاه من الصعوبات التي أنا أعلم بها من غيري.

وضع مصطفى كامل نصب عينيه خدمة مصر وإيقاظها من سباتها منذ كان بمدرسة الحقوق الخديوية؛ بل منذ كان بالمدارس الثانوية، وسار في طريقه الشريف - طريق التفاني في خدمة البلاد - لا يلوي يمنة ولا يسرة، حتى توج الله أعماله بالنجاح ورأى غرسه يانعاً قبل أن يترك هذا العالم الفاني.

نعم إن مصطفى كامل لم يموت بل روحه ترفرف علينا، وتنظر إلينا من الملكوت الأعلى تشجعنا على السير في الطريق المستقيم الذي رسمه لنا، ولن نترك هذا الغراس

الشريف؛ غراس الوطنية الحققة يزول أو يعوقه أي عائق عن النمو، ولو فعلنا ذلك لارتكبنا خيانة نحو الوطن المحبوب.

إن هذه الفكرة السامية، فكرة خدمة الوطن حتى الممات، كانت تملأ جنانه ووجدانه منذ بدأ في عمله، فقد كتب لي جواباً في (٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦م) من فيينا قال في آخره: «إني مستمر إلى يوم الوفاة على خدمة بلادي، وإن غيرتي على حقوقها تزداد يوماً بعد يوم، ولا يقلل من عزمي تهاون بقية المصريين أبداً؛ بل إنني سائر إلى الأمام حتى أنزل القبر، وبعد موتي يكون على روعي واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل، أو إن شئت قل: واجب إحياء من هم أموات في قالب أحياء».

لقد نجح مصطفى كامل في عمله، فقد أصبح القوم كلهم أحياء، أصبح القوم كلهم متفقيين على التعاون والتضافر على خدمة هذه البلاد العزيزة. فاستمروا يا إخواني في هذا الطريق السوي، ولا يقعدنكم عن العمل تثبيط بعض ضعفاء العزيمة، أو انتقاد بعض الجاهلين والمتجاهلين لمقاصدنا الشريفة، فإن سرنا بعزيمة واتحاد لا يلبث أهل القطر أجمعهم أن يصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضنا بعضاً، ونلنا ما كان يسعى إليه فقيدنا.

وكتب إلي في جواب آخر من بودابست في (٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦م) ردّاً على من كانوا ينكرون عليه فائدة عمله قائلاً: «ولكنهم جهلوا أن لي روحاً هي من نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة في ظلمات الظلم والاستبداد، جهلوا أن روعي تنادي إلى يوم الممات ما شاكلها من الأرواح الشريفة لتتحد معها على القيام بهذا العمل الشرعي الحق، وماذا أقول لك وأنت تحس بما لا يستطيع القلم كتابته، وأنت إذا تلوت هذه الأسطر سألت الدموع من عينيك، ماذا أكتب وأنا كلما شاهدت هذه البلاد وشاهدت فيها علم الوطنية عاليًا مرفوعاً ازداد لهيب فؤادي وتفتت مني الكبد».

هذه أقواله من نحو اثني عشر عامًا، فحق لمصر أن تبكيه بدل الدموع دماء، ووجب عليها أن تقيم له التماثيل في كل المدن الكبرى، ووجب على كل مصري أن يضع صورته أمامه ليقتبس نور الحرية من خدماته التي كانت أشعتها تحترق الحجب فتصل إلى أعماق القلوب، ووجب علينا أن نستنير بما كتبه من المواعظ والحكم الوطنية. نعم إن صورته لن تغيب عنا، بل هي منقوشة على صفحات قلوبنا، كما أن أقواله مكتوبة بأحرف من نور على أفئدتنا، ولكن فائدة التماثيل هي لمن يأتي بعدنا ولم ير بعينه ذلك الذكاء ولا هاتيك الشهامة التي كانت تنبعث من محياه فتحرك القلوب الجامدة، لقد شهد له ألد أعدائه بقوة التأثير بخلافة منطقته وقوة حجته ونفوذه روحه إلى نفس المتكلم، فيخرج من لدنه مقتنعا معترفاً بفضلته إن لم يكن جهراً فسرّاً.

إخواني الأعزاء:

لقد اجتمعتم هنا لتأبين المرحوم مصطفى كامل وذكر فضائله نظماً ونثراً، ولكن أنى للشعراء والأدباء أن يوفوه حقه من الشناء والمديح، وهو من النوابغ الذين يبعثهم الله كل حقبة من الزمان لإحياء موات الأمم والقيام بواجب إحياء من هم أموات في قالب أحياء.

إن أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير في الطريق السوي الذي رسمه ومهد له لنا، وأن نضم صفوفنا حتى لا يدخل بينها منافق أو مخاتل، ونسير كرجل واحد إلى فتح قلعة الحرية وامتلاك أبراجها، وتحسينها بالنظام النيابي الدستوري حتى لا يمكن إخراجه منها ثانياً. إن أحسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح إليها روحه الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم أجمع أن مصطفى كامل لم يمت وأن روحه اتحدت بروح كل فرد منا؛ فأصبحنا كلنا مصطفى كامل، ونكون بذلك قد حققنا ما كتبه لي بالجواب السابق ذكره (وبعد موتي يكون على روحي واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل).

فيا أيها الفقيد المحبوب، ويا أيتها الروح الطاهرة، قد تحقق ما كنت تؤمله وما قضيت زهرة شبابك للوصول إليه، وأصبحت الأمة بعناصرها الثلاثة مسلمين ومسيحيين وإسرائيليين كلها مجتمعة كرجل واحد متحدة الأفكار والقلوب، لا يمنعها من الحصول على رغائبها مانع، ولا تقف في وجهها قوة، فقوة الأمة فوق كل قوة، وأمتنا المصرية قد شعرت بقوتها وتركت اليأس ظهرياً اتباعاً لقوله رحمه الله: (لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة).

إخواني:

قال تعالى في محكم التنزيل: {وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا فتذهب رجلكم}، وقال تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا}.

قصيدة إسماعيل باشا صبري

وبعد أن انتهى فريد بك من خطبته تلاه الشاعر الكبير «إسماعيل صبري» وطلب إلى حافظ إبراهيم أن يتلو قصيدته، فتلاها بصوته الجمهوري؛ قال:

أجل أنا من أرضاك موافي	ويرضيك في الباكين لو كنت واعيا
وقلبي ذاك المورد العذب لم يزل	كما ذقت منه الحب والود صافيا
سوى أنه يعتاده الحزن كلما	رآك عن الحوض المهدد نائيا
ويعثر في بعض الخطوب إذا	إلى بعض ما يهوى فيرجع داميا
وإن رامه سرب المسرات لم يجد	محلاً به من لاعج الهم خاليا
ألا علاني بالتعازي وأقنعا	فؤادي أن يرضى بهنّ تعازيا
وإلا أعيناني على النوح والبكا	فشأنكما شأني وما بكما بيا
وما نفعي أن تبكي غير أنني	أحب دموع البر والمرء وافي
أيا (مصطفى) تالله نومك رابنا	أمثلك يرضى أن ينام اللياليا

تكلم فإن القوم حولك أطارقوا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة
وتبكيك لولا أن فيها بقية
فهل ألفت ما بين جفنيك والكرى
فقدناك فقدان الكمي سلاحه
وبتنا وقد باتت رفاقك في الثرى
ولولا تراث من أمانيك عندنا
طواك الردى طي الكتاب تضمنت
مطاء إذا البيض انتمت لأصولها
ورأي يجلي اليأس واليأس ضارب
إذا ما تقاضينا ولم تك بيننا
فليتك إذ أعيت كل مساجل
وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تفض
لقد ضاع إخلاص الطبيب وحذقه
ولم تنتهز تلك العقاقير فرصة
يحيك سيفاً بات في التراب مغمداً

وقل يا خطيب الحي رأيك عالياً
تخالك أعواد المنابر فانيا
تعلها من ذلك الصوت داوياً
محالفة أم قد أمنت الأعادياً
وساري الدياتي كوكب القطب هادياً
سقاها الحيا^(١) تستبطئ الدمع هامياً
كريمٌ بكينا إذا بكينا الأمانياً
صحائفه من كل فخر معانياً
غضبنا إذا سماءك قومٌ يمانياً
على الأفق ليلاً فاحم اللون راجياً
ذكرناهما^(٢) حتى تجيد التقاضياً
قنعت فلم تعي الطبيب المداويأ
مع الحبر قلباً يعلم الله غالياً
سدى فبكى الذي كان راجياً
ترى الناس فيها فصل (بقراط) بادياً
تقلده فيما مضى الحقُّ ماضياً

قصيدة حافظ إبراهيم

ثم ألقى شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدته، قال:

نشروا عليك نوادي الأزهار^(١) وأتيت أنثر بينهم أشعاري

(١) المطر.

(٢) أي ذكرنا المضاء والرأي.

هل أنت بالمهج الحزينة داري
والعيش عيش مذلة وإسار
عاد وصاح الصائحون: بدار
طال انتظار السمع والأبصار
ماذا أصابك يا أبا المغوار؟
جهلاً بدين الواحد القهار
همت وهم رجاؤها بعثار
أو غضبة (الفاروق للمختار) (٢)
صبراً عليك وأنت شعلة نار
عزم يهد جلائل الأخطار
لعب الفوارس بالقنا الخطار (٣)
فجرى القضاء وأنت في المضمار
بدرت إليه غوائل الأقدار
وشهدت موكبه فقر قراري (٤)
بالكهرباء، وطائر بيخار
وعلمت منه مراتب الأقدار
حق الولاء وواجب الإكبار
يمشون تحت (لوائك) السيار

زين الشباب وزين طلاب العلا
غادرتنا والحادثات بمرصد
ما كان أحوجنا إليك إذا عدا
أين الخطيب وأين خلاب النهى؟
بالله مالك لا تجيب منادياً
قم وامح ما خطت يمين (كرومر)
قد كنت تغضب للكنانة كلما
غضب التقى لربه وكتابه
قد ضاق جسمك عن مداك فلم يطق
أودى به ذاك الجهاد وهذه
لعبت يمينك باليراع فأعجزت
وجريت للعلياء تبغي شأوها
أو كلما هز الرجاء مهنداً
عز القرار علي ليلة نعيه
وتسابت فيه النعاة فطائر
شاهدت يوم الحشر يوم وفاته
ورأيت كيف تفي الشعوب رجالها
تسعون ألفاً حول نعشك خشع

(١) نوادي الأزهار: أي الرطة المبللة بالندى.

(٢) الفاروق: عمر بن الخطاب، والمختار: النبي عليه الصلاة والسلام.

(٣) القنا: الرماح.

(٤) أي استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد في موكب الجنائز.

للحزن أسطاراً على أسطار
ركب الحجيج بكعبة الزوار
عند المصلى ينصتون لقاري
تجري بلا كلح^(١) ولا استنثار
ما بين سيل دافق وشرار
في صدني متدفق التيار
لقضيت بين مراجل وبخار
هتكت عليك حرائر الأستار
في النعش لا خبراً من الأخبار
وجه الخمار فلم تُلذُّ بخمار^(٢)
سِترٌ من الأحزان والأكدار
منك الوداد فكان خير شعار
في طيِّه سرٌّ من الأسرار
يتعانقان على شفير هاري
لنوى مروعة وبعده مزار
ما بين حر أسى وحر أوار^(٤)
رجلاً يناضل عنه يوم فخار
باتت تقاس بأطول الأعمار

خطُّوا بأدمعهم على وجه الثرى
أنا يوالون الضجيج كأنهم
وتخالهم أنا لفرط خشوعهم
غلت الخشوع عليهم فدموعهم
قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم
أسعى فيأخذني اللهيب فأثنى
لوم أُلذُّ بالنعش أو بظلاله
كم ذات خدرٍ يوم طاف بك الردى
سفرت تودع أمة محمولة
أمنت عيون الناظرين فمزقت
قد قام ما بين العيون وبينها
أدرجت في العلم الذي أصفيته
علمان^(٣) من فوق الرءوس كلاهما
ناداهما داعي الفراق فأمسيا
تالله ما جزع المخب ولا بكى
جزع (الهلال) عليك يوم تركته
متلفَّتْنا متحيراً متخيراً
إن الثلاثين التي بك فاخرت

(١) الكلح: العبوس؛ أي تجري الدموع بطبيعتها بلا عبوس.

(٢) الخمار: أي الحجاب.

(٣) يريد بالعلمين الفقيه؛ فهو علم الوطنية، والثاني علم مصر.

(٤) الأسي: الحزن، والأوار: الظمأ والتعطش؛ أي التعطش إلى الفقيه.

ضمّت إلى التاريخ بضع صحائف
شبهتهن بنقطة عطرية
خلفتها كالمشق يحذو حذوها
ماذا على الساري - وهن^(٢) منائر -
مازلت تختار المواقف وعرة
وهدمت سورًا قد أجاد بناءه
ووصلت بين شكاتنا ومشايخ
كشفوا العطاء عن العيون فأبصروا
نبذوا كلام (اللورد) حين تبيينوا
ورماهم بمجلدين^(٥) رموها
وأها على تلك المواقف إنها
لم يلوه عنها^(٦) الوعيد ولا ثنى
فأهناً بمنزلك الجديد ونمّ به
واستقبل الأجر الكبير جزاء ما
نعم الجزاء ما بلّغته

بيضاء مثل صحائف الأبرار
وسعت محصل روضة معطار^(١)
راجي الوصول ومقتفي الآثار
لوسار بين مجاهل وقفار
حتى وقفت لذلك الجبار^(٣)
فرعون^(٤) ذو الأوتاد والأنهار
في (البرلمان) أجلّة أختيار
ما في الكنانة من أذى وضرار
حنق المغيظ ولهجة الثرثار
في رتبة الأصفار لا الأسفار
كانت مواقف ليث غاب ضاري
من عزمه قول المريب: حذار
في غبطة وانعم بخير جوار
ضحيت للأوطان من أوطار
في منزليك^(٧) ونعم عقبى الدار

(١) الروضة المعطار: هي الكثيرة الأزهار والرياحين.

(٢) هن إشارة إلى الثلاثين عامًا؛ أي ماذا على الساري في المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعلام.

(٣) يريد بالجبار: اللورد كرومر الذي كان حكمه مطلقاً في مصر.

(٤) شبه اللورد كرومر بفرعون.

(٥) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر.

(٦) أي لم يصرفه عن مواقفه الوعيد والتهديد.

(٧) أي الدنيا والآخرة.

ثم وقف المسيو «كولرا» رئيس تحرير جريدة الإيجبت وألقى كلمة تأبين بالفرنسية بالنيابة عن الصحافة الأوربية، وهنا أقبلت طلائع الموكب، فاشتد الزحام وعظم التلاحم، وامتألت المنافذ بالقادمين، ولما ضاق المكان وعظم تدافع الجماهير قررت لجنة التأبين اختتام الاحتفال خوفاً من وقوع حادث من شدة الزحام؛ إذ اختلطت جموع الموكب بالحاضرين، ونشرت اللجنة خطب المؤبنين وقاصدتهم بحسب ترتيب ورودهم في البرنامج: محمد فريد بك، إسماعيل باشا صبري، أحمد لطفي السيد بك، المسيو كولرا مندوب الصحافة الأوربية، محمود بك أبو النصر، قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم، كلمة الأستاذ أخنوخ فانوس، قصيدة محمد بك أبو شادي، كلمة مندوب طلبة المدارس (الأستاذ محمود خيرت)، كلمة الشيخ مصطفى القاياتي عن الأزهر، كلمة الأستاذ مرقس بك حنا (باشا)، قصيدة الدكتور السيد بك رفعت، قصيدة شاعر القطرين خليل بك مطران (وقد نشرناها فيما يلي)، قصيدة حسن بك حمدي، قصيدة الشيخ سليمان علي مطيريد شيخ قبيلة عربان الضعفاء ببني سويف، كلمة محمد أفندي لمعي المهندس، قصيدة السيدة زينب فواز عن السيدات، كلمة إبراهيم أفندي فهمي عبد الهادي التلميذ بمدرسة مصطفى كامل، كلمة علي بك فهمي كامل شقيق الفقيد.

هذا وقد أقيمت للفقيد حفلات تأبين عدة في مختلف الأحياء والعواصم والأقاليم.

قصيدة خليل مطران (حق الوطن وحق الإخاء)

أعلى مكانتك الإله وشرفا	فانعم بطيب جواره يا (مصطفى)
اليوم فُزت بأجر ما أسلفته	خيراً وكلُّ واجد ما أسلفا
وجُزيت من فاني الوجود بخالد	ومن الأسى الماضي بمقتبل الصفا
أعظم بيومك في الزمان ومن له	بك واصفاً ذاك الجلال فيوصفا

حافين حولك في السرير وعكفا
 سربا يجوز بك الدراري موجفا
 والأرض مائدة عليك تأسفا
 يذرو الرجال به المدامع ذرفا
 بهم الرحيب من المسالك مصرفا
 ساروا بطيف ناحل أو أنحفا
 فلك يظلمه اللواء مرفرفا
 آثارة من رفعة لا تُقتفى
 مُلق على الأبصار سترًا أغدفا
 خطب ألان بروعه صم الصفا
 من دعمهم إن خانهم متكفكفا
 بعد الفقيد فتى بهم فتوقفا
 هو خير من والى وأوفى من وفى
 ليزيل ذاك العارض المتكشفا
 لما مضيت ولست فيهم مخلفا
 يُعلي لهم صوتًا وينشر مصحفًا
 ويرد نقد الناقدين مزيفًا
 ويزيل ما يلد التناكر من جفا
 همًا تعيدله المقام الأشرفا
 سمرا تهز لكل خطبٍ معظفا
 ليزود عنه خصمه المتعسفا

حيث الوفود من الملائك أقبلوا
 وتحملوك على الأشعة وارتقوا
 فوردت وردك في الخلود منعمًا
 لم تلف قبلك أمة في مشهد
 يمشون من حول الجنازة ضائقًا
 متثاقلين من الوقار وإنما
 بحر من الأحياء نعشك فوقه
 يكون في آثاره العلم الذي
 سعت الخوادر حاسرات والأسى
 ولئن سفرن ولم يخلن فإنه
 فزع الشباب إلى الشيوخ بثأرهم
 ومن الغضاضة أن دعا داعي العلا
 جزع النصارى واليهود لمسلم
 بكوا المرجى في خلاف عارض
 واشتد رُزء المسلمين وحنزهم
 من بعد كاتبهم وبعد خطيبهم
 من يبرى الإسلام من تهم العدى
 بيدي لأعين جاهليه فضله
 ويثير من غضب الغضاب لمجده
 لكن من أقلام جندك حوله
 ولعل حرًا لا يدين به انبرى

فلقد تجاوزت الهدى متفلسفا
 أيكون منقصة لها أن تُكسفا
 يثنى أشعتها إلى أن يكسفا
 للعاملين ورادعا ومثقفا
 أن قصر الأقوام عنه فأخلفا
 أن خالفوه فما استحال ولا انتفى
 لننابه هذا الرقي مسلفا
 ومنى الساحة عوده مستأنفا
 والشُر كل الشر أن يتخلفا
 بين العناصر أو يهين ويضعفا
 سقمٌ ولم يتلاف عم وأتلفا
 بسلامة الإسلام وهي لها شفا
 أرضت خبيرًا بالحياة ومنصفا
 حق الإبانة هل تبالي مرجفا
 حتى أنار الكون منها مُشرفا
 وأرى ترابك من حنين قد هفا
 وكأنني بك موشك أن تهتفا
 بأعز منك ولم تعز بأحصفا
 في الحاليتين ملاينًا ومعنفا
 بصبيب دمك جارياً مستنزفا
 متصدرًا لرماتها مستهدفا

قِف أيها الناعي عليه جموده
 إن يعتر الشمس الكسوف هنيهة
 وهل الكسوف سوى تعرض حائل
 لم تنزل الأديان إلا هاديا
 بشعار حي على الفلاح وما بها
 وبكل أمر موجب إصلاحهم
 قد كان للإسلام عهد باهر
 ملأ البلاد إنارة وحضارة
 فالخير كل الخير فيه مقبلاً
 يدعو البقاء إلى التكافؤ بالقوى
 والخلق جسم إن ألمَّ ببعضه
 بشرى البرية بعد مُزمن دائها
 إن أغضبت تلك السلامة جائراً
 يا من نهضت بنصره وأبتته
 ما زلت في مصر قديم منارة
 مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها
 وكأنني بالقبر أصبح منبراً
 مصر التي لم تحظ من نجباتها
 مصر التي لم تبغ إلا نفعها
 مصر التي غسلت يداك جراحها
 مصر التي كافحت لدُّعاداتها

وَمُنَى لَتَكْفِيهَا الْمُغِيرَ الْمُحِضِفَا
 بَلِغِ الْفِدَاءِ نِزَاهَةَ وَتَعْفُفَا
 مِنْ شَمَلِهَا مِنْ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُؤَلِّفَا
 لَوْ لَمْ يُضَافِرْهَا رَدَاكَ فَيَسْعِفَا
 شَعْبَ يَعِزُّ بِنَفْسِهِ مَسْتَنْصِفَا
 بِالْحَقِّ لَا شَكْسًا وَلَا مِتْصَلِفَا
 يَعْنِي الْحَكِيمَ مَدْبِرًا وَمَصْرَفَا
 فِيهِ مَهِيْبُ الطَّبَعِ وَالْمَسْتَظْرَفَا
 يَجِدِي الْبِلَادَ فَتَبْتَغِيهِ مُلْحَفَا
 تَهْوَى وَمَعْطَاءَ لَغَيْرِكَ مُسْرَفَا
 مِمَّا تَقُولُ وَلَا تَعَاهِدُ مَخْلَفَا
 عَالِي اللِّوَاءِ حَمَى الْمَرْوَةِ وَالْوَفَا
 أَغْدَتُ مَعَالِمَهُنَّ قَاعًا صَفْصَفَا
 وَرَجَائِهِ كَذِبَ النِّعَى وَأَرْجَفَا
 مَلَى الْوَجُودِ بِهِ وَيَصْبِحُ قَدْ عَفَا
 بِكَ فِي جِهَادِكَ أَوْ أَشَدُّ وَأَشْعَفَا
 عَنْ مِصْرٍ تَضْرِبُ فِي الْبِلَادِ مَطُوفَا
 نِضْوُ الطَّرِيقِ وَتَدْفَعُ الْمُتَخَلْفَا
 هَمًّا وَتَوْشِكَ أَنْ تَطْمَ فَتَجْرَفَا
 وَيَكَادُ يَعْرِزُ كُلَّ حَرْفٍ مَعْرِفَا
 فَهُوَ النَّسِيمُ وَقَدْ ذَكَا وَتَلْطَفَا

مِصْرُ الَّتِي سُقَّتَ الْجِيُوشُ مَنَاقِبَا
 مِصْرُ الَّتِي أَحْبَبْتَهَا الْحُبَّ الَّذِي
 حَتَّى مَضَيْتُ كَمَا ابْتَغَيْتُ مَوْلِفَا
 أَمْنِيَةَ أَعَيْتُ خِلَالَكَ دُونَهَا
 وَهِيَ الَّتِي لَوْ أَقْسَمْتُ لَنَا بِهَا
 مِنْ كَانَ أَجْرًا يَوْمَ كَرِيهَةِ
 مِنْ كَانَ أَقْدَرُ مِنْكَ تَصْرِيفًا
 مِنْ كَانَ أَطْهَرَ مِنْكَ خَلْقًا جَامِعًا
 مِنْ كَانَ أَزْهَدُ مِنْكَ إِلَّا فِي الَّذِي
 مِنْ كَانَ أَسْمَعُ مِنْكَ مَنَاعًا
 مِنْ كَانَ أَصْدَقُ مِنْكَ لَا مِتْنَصَلَا
 لَهْفِي عَلَى فِخْرِ الصَّبِيِّ هَادِي النَّهْيِ
 يَا مَنْ نَعَى تِلْكَ الْفِضَائِلَ وَالْعَلَى
 لَا لَا وَحَقِّكَ يَا شَهِيدَ وَفَائِهِ
 مَا أَنْتَ بِالرَّجُلِ الَّذِي يَمْسِي وَقَدْ
 إِنْ أَرَاكَ وَلَا تَزَالُ كَعَهْدِنَا
 ثَابِرًا عَلَى تِلْكَ الْعِزَائِمِ ذَائِدًا
 أَصْدَرَ صِحَائِفِكَ الَّتِي تَحْيِي بِهَا
 تَجْرِي بِهَا الْأَنْهَارُ وَهِيَ دَوَافِقُ
 وَتَكَادُ أَسْطَرَّهَا تَهْبُ نَوَاطِقَا
 فَإِذَا حَنُوتُ عَلَى الْحَمَى مِتْحَبِّيَا

نقش المداد رسومها وتحففت
وتعاف تحلية لئلا تكشفنا
تلك النفوس مروعا ومشفنا
ذكرى وعرفنا الحياة لعرفنا
حتى نبيت ولا نرى متخوفنا
شررا وتهوى الشهب فيها أحرفنا
ما ذاك التفويف ليس مفوفنا
هبطت رواسب عنه والمعزى طفا
متماهل الإشراق أو متخطفنا
وقف القضاء من المنصة موقفا
وكأمره أمر الزمان مصرفنا
لكنه حلم مضى مستطرفنا
متلهبين تشوقا وتشوفنا
وبأي ألفاظ المحامد يكتفى
فيك الرثاء منسقا ومصفنا
صوغ الكلام مرصعا ومزخرفنا
كبكاء مصر تحرقا وتلهفنا
كشفت الجوى عنه الحجاب فأشرفنا
وكسته ناسجة الطهارة مطرفنا
لا مفترى فيه ولا متكلفنا
ويجل في مجراه عن أن يصدفنا

وكانها الألفاظ مما خففت
تستام من أثوابها أرواحها
قم للخطابة في الجامع وامتلك
أعد القديم من الممالك والقرى
شدد عزائنا وقاتل ضعفنا
ما هذه الآيات يرمي لفظها
ما ذلك الترصيع ليس مرصعا
وحي بأهجية إذ ما أطلقت
تحيي حرارتها ويهدي نورها
تالله ما أنت الخطيب وإنما
عن نطقه تقع الصروف مواعظنا
يا حبذا لو كل ذلك لم يزل
والآن نحن لدى ثراك نحجه
نشني وهل يوفى ثناؤك حقه
ماذا يعيذك من شبابك نظمنا
ويعيذك منك وكنت جوهرة الحمى
يا أخلص الخالصاء أبكي بعده
هذا مثال لاح يرعانا وقد
جاد الهلال برسمه تاجاله
كهواك للأوطان فليكن الهوى
يجري على قدر المطالب ناميا

أنشأت من مصر الشتات بفضله
أحدثت فيها أمة أندى يدًا
عرفت أهلها حقيقة قدرهم
نفحات روحك خامرت أرواحهم
حصن أشم تساندت أجزاءه
فارقذُ رُقادك إن ربك قد محما
مصر الفتاة حمى يعز ومألفا
للصالحات وبالعضائم أكلفا
وكفاهم من قدرهم أن يُعرفا
فهم مرامك ساء دهر أو صفا
علما وأمنه النهى أن ينسفا
بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

تمثال مصطفى كامل

اتجهت الأفكار منذ وفاة مصطفى كامل إلى إقامة تمثال له تقديرًا لجهاد مؤسس الحركة الوطنية، وبدأ الكثيرون بالاكْتتاب للتمثال قبل أن تتألف لجنة لإقامته، وقد قدرت الأمة على اختلاف أحزابها فضل الزعيم، فاتجهت الفكرة إلى جعل المشروع قومياً لا يختص به حزب من الأحزاب؛ لأن مصطفى كامل كان زعيم حركة قومية لا زعيم حزب فحسب.

فتألفت لجنة لإقامة تمثاله واجتمعت في (١٦ فبراير سنة ١٩٠٨م) برئاسة إسماعيل باشا صبري الشاعر الكبير، ومن أعضائها محمد بك فريد، والدكتور محمد علوي باشا، وحسن بك عبد الرازق (باشا)، ومحمود بك أبو النصر، وعلي بك فهمي كامل، ومرقس حنا بك (باشا) والأستاذ ويصا واصف، وأحمد بك لطفي السيد (باشا)، ويوسف صديق بك (باشا) وإلياس بك عوض (باشا)، وفؤاد بك سليم (باشا)، وعبد العزيز فهمي بك (باشا)، وعمر بك سلطان (باشا)، وأحمد بك عبد اللطيف المحامي الشهير، وأخذت في جميع الاكْتتابات للتمثال.



وعهد «فريد بك» نيابة عن اللجنة إلى المسيو «سافين» الممثل الفرنسي الشهير ببايس صنع التمثال من البرونز، فأتمه في (إبريل سنة ١٩١٠م)، وعرضه في معرض الفنون الجميلة بباريس، فحاز الاستحسان العام، وهو يمثل الفقيه واقفاً يخطب مشيراً بيده اليمنى ومرتكزاً باليسرى إلى تمثال لأبي الهول كأنه يوقظه، وعلى القاعدة صورة من البرونز تمثل مصر منصتة إلى الخطيب تشير بيدها اليمنى كأنها تطلب من العالم أن ينصت إليه مثلها، والصورة والتمثال آية في الفن والجمال.

ويبلغ ارتفاع التمثال دون قاعدته مترين وثمانين سنتيمتراً، ويبلغ مع القاعدة ستة أمتار وستين سنتيمتراً، وقد بلغت تكاليف صنعه ونقله (٢١٢٠ جنيهاً) عشرين ومائة وألفي جنيه.

وجاء التمثال إلى القاهرة في (يناير ١٩١٤م) على عهد وزارة محمد سعيد باشا، وطلبت اللجنة من الحكومة تخصيص ميدان من الميادين العامة لإقامة التمثال، ولكن الحكومة صمت أذاتها عن تلبية نداء اللجنة، وظل التمثال سجيناً في مدرسة مصطفى كامل مدة أربع وعشرين سنة، حتى اقتضت إرادة الله عز وجل وتحت ضغط جماهير الشعب الإفراج عن التمثال وإقامته في ميدان عام من ميادين العاصمة، فقرر مجلس الوزارة بجلسته (أول سبتمبر سنة ١٩٣٨م) إقامة التمثال في ميدان العتبة الخضراء، وكان لهذا القرار رنة استحسان عام في أرجاء البلاد، وعدل مجلس الوزراء مكان التمثال فقرر بجلسته (٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨م) إقامته في ميدان (سوارس) مع تغيير اسم الميدان وتسميته ميدان (مصطفى كامل).

حفلة إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل (١٤ مايو ١٩٤٠م)

وقد بنت الحكومة قاعدة التمثال في ميدان (مصطفى كامل) ونقشت على صدر القاعدة «مصطفى كامل باشا ١٨٧٤-١٩٠٨م»، وعلى الجانب الأيمن منها هذه العبارة الماثورة من كلمات الزعيم: «لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة». وعلى الجانب الأيسر منها قوله: «إن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان». وعلى الجانب الخلفي هذه العبارة: «اكتتبت الأمة بجمع طبقاتها في صنع هذا التمثال سنة ١٩١٠م، وفي سنة ١٩٣٨م قررت الحكومة إقامته في هذا الميدان تمجيذاً للذكرى».

وأقامت الحكومة التمثال على هذه القاعدة، واحتفلت برفع الستار عنه، على عهد وزارة علي ماهر باشا يوم (الثلاثاء ١٤ مايو سنة ١٩٤٠م) في حفلة فخمة، وألقى علي ماهر باشا رئيس الوزراء الخطبة الآتية:

«جننا لنحيي تمثال مصطفى، فلنقف هنيهة خاشعين أمام الذكرى.

كلما ذكر مصطفى، ظهر اسمه في هالة من المجد، وانتشر ذلك النور الساحر الذي يملأ النفوس رهبةً وإجلالاً.

في هذه الساعة يطيب لنا أن نجتمع في ظل المبادئ التي أفنى نفسه وجسمه في سبيلها، في ظل الإخلاص الذي مات عليه فأحيا أمة ودفع شبابها إلى ميادين الكفاح والعدا.

نجتمع أمام ذلك التمثال الذي يحرك النفس وهو صامت؛ لأن جلال التاريخ وجمال الذكرى في شخصه يلتقيان.

كان مصطفى أول من حمل لواء الحرية بعد أن طوى زماناً، وكان أول من صاح تلك الصيحة في طول البلاد وعرضها، صيحة التضحية، صيحة الحرية، صيحة الحب صيحة الحياة: «بلادي بلادي، لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي ولساني، لك حبي وجناني، أنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر».

نقرأ اليوم خطب مصطفى، فلا نرى فيها أثر البلاغة والتنميق؛ ذلك أن بلاغته كانت روحانية بلا جسم، ليست بحاجة إلى صلة أو سبب مادي لتصل إلى النفوس وجوهاً.

ذلك أن حياة مصطفى قصيرة، لم تكن كحياة غيره من الزعماء والقادة، سلسلة أعمال توصف وتحلل، وإنما كانت هذه الحياة كلها، التي تعلو على كل حصر وتحليل، صوتاً يخيل إلى سامعيه أنه يهبط من السماء، صوتاً كصوت الماضي، رن في الوادي فانتبه، ولا تزال أصدائه تتجاوب وتمتد بعد الموت.

وقد كان مصطفى يجمع بين إقدام الشباب، واتزان الكهول في الفكر.

وهذه المبادئ التي استمدتها من وحي الوطن واتخذها شعاراً لجهاده قد دلت التجارب والمحن على أن راسمها كان بعيد النظر سليم التفكير.

كان مصطفى مقدامًا، يخلق الحماسة ويتعهد لها لأنه يعلم أن الحماسة في حياة الأمم تنزل منها منزلة الروح من البدن، وأن الشعب إذا غابت عنه الحماسة غابت عنه الحياة، فكان يعمل ليله ونهاره كاتبًا وخطيبًا على تغذية العاطفة الوطنية وإيقاظ الجماهير التي كان يجذبها بشخصه وإيمانه وشجاعته.

كان مصطفى يحمل في قلبه صورة الوطن الحي أنى سار أو أقام، فكان قلبه مقتدرًا على جمع القلوب، تخفق كلما خفق، وتشاطره حمل السراء والضراء وكان الشباب - شباب الوادي وعدته - جنوده المجندة تأتلف حول لوائه، وكان هو قائدها وهاديا.

كان مصطفى شعلة ذكاء وحماسة، وكان خير محام عن خير قضية، وكان في دفاعه يهب لنصرة الحق والعدل، وكان جلدًا على الكفاح، لا يبرح يناضل حتى يصرع الباطل ويرمي السهم في مقاتله.

وقد صبر وجاهد واحتمل الأذى في سبيل مصر، في سبيل النيل وواديه، في سبيل تلك القرى والمدائن الجائمة في حوض الوادي، في سبيل ذلك الأفق الضاحك بين جنات النخيل والأعناب، بين هزج السواقي وأغاني الفلاح.



على قاعدة تقال مصطفى كامل

يوم إزاحة الستار عنه - ١٤ مايو سنة ١٩٤٠

وترى في الصورة: الدكتور اسماعيل صدقي بك، عبد الرحمن الرافعي بك، محمود خيرى باشا
 محمود جلال بك، الأستاذ عبد المقصود متولى، الأستاذ حسن حسن كامل، عبد الملك حمزة بك، انطون
 الجميل بك (باشا)، الأستاذ محمود العمري، الأستاذ حسن شافعي الجيزاوي، اسماعيل العسيلي، على عل
 بسوفى، شعبان الكاتب، على فهمى خليل، حسين رمزي، الدكتور يحيى الدرديري، الدكتور منصور
 القايسى، الدكتور نصر فريد بك، محمد على المهندس... الخ

وقد تغلغل حب مصر في فؤاد مصطفى؛ لأن حبه كان صادرًا عن عاطفة وعقل
 وعلم، وكان ذلك الحب لا تشوبه شائبة من مطمع في مادة أو جاه.

كان مصطفى مصرياً صميمياً يجب مصر وفلاح مصر حافظ كيائها.

ذلك الفلاح الذي هو نحن وأنتم، الذي هو مصر من طيبة إلى الفسطاط والقاهرة، والذي طبع البلاد بطابعه، وانضمت كتلته على الغزاة، فأنت شخصيتهم في ثناياها.

وقد كان المصريون في أدوار تاريخهم سلسي القيادة لكل زعيم يخرج من صفوفهم، ويعرف كيف يسوسهم، ويتخذ لنفسه نقطة ارتكاز في قلوبهم وفي صميم إحساساتهم وعواطفهم، وفي شجاعتهم وإيمانهم، وفي أرضهم ولغتهم، وقد ولد مصطفى في مصر، وحك جلده بأرضها الغراء طفلاً، ونشأ حرّاً، وعاش حرّاً.

وها نحن أولاء نقف أمام تمثاله ونخيل إلينا أن الحياة تدب وتتوثب في كل ذرة ساكنة منه، وأن وراء هذه المادة قوة خفية تدفع الشعب إلى غاياته الكبرى.

في هذا اليوم الذي تتطاحن فيه الأمم ذوداً عن كرامتها، وتدعيماً لشخصيتها وحرّياتها، نقف أمام تمثال مصطفى متعاونين متساندين في سبيل إعلاء كلمة الحق.

مات مصطفى، فكان موته أول شاهد على تغلغل الروح الوطنية في مختلف الطبقات، وأول دليل على أن في هذه الأمة قوة؛ بل قوى حيوية كامنة، إذا وجدت من يحرّكها ويتعهدا أت بالمعجزات.

فلنذكر مصطفى، ولنلطف بتمثاله، ولنأخذ من موته معنى الحياة والحرية والأمل.

إنه وإن لم تتحقق آماني مصطفى كلها إلى اليوم، فإننا لا نشك لحظة في أن هذه الأماني ستتحقق على أيديكم، فقد أعلن الاستقلال وستكمل بإذن الله دعائم هذه الاستقلال وتتوطد.

وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق في شتى مواضعها، وعلى إثر إلقائها جُذِبَ شريط متصل بالستار فانشق عن تمثال الزعيم العظيم، ودوى التصفيق في جنبات سرادق الاحتفال، فرددته الجماهير المحتشدة التي تجمعت خارج السرادق.

مقتطفات من أقوال الشعراء والكتاب

لمناسبة حفلة إزاحة الستار

قصيدة خليل مطران

تحية الشعر

ماذا خشوا من فتنة التمثال؟	أمنوا بموتك صولة الرئبالِ
فاضت أسى ودموعهن غوال	حبسوه عن مُقَلِّ إليه مشوقة
وجلاء من أوفى بنيتها جال	حتى أرادت مصر غير مُرادهم
وتُذَاد عنهم يوم الاستقلال	أتهى استقلال قومك جاهداً
في بدئها ولكل بدءٍ تال	أنصفت بعض الشيء بل هي توبة
فيم ادعى صلفاً وجدك عال	فلقد تئوب وَجَدُّ غيرك عاثر
تلقاك بالإكرام والإجلال	يا حُسنَ عودك والكنانة حرة
من غرفتيان وصيد رجال	أيروعك الحشد الذي بك يحتفي
في هذه الآساد والأشبال	ماذا بثت من الحياة جديدة
وسواك يحسبه رجاء مُحال	بَعث لموطنك العزيز رَجَوْتَه
سَرَفٌ لطلوب بعيد منال	خاطرت فيه بالشباب وبذله
شوقي إليك فهن جد طوال	أي مصطفى ولت سنون وما اشتقى
زالوا ولم يشأ القضاء زوالي	عجب بقائي بعد أكرم رفقة

فأحق حيي بالأسى أمثالي
 وجب الرثاء فلإنما يرثى لي
 وشُخوصهم ملء الزمان حيالي
 وإلى يميني تارة وشمالِي
 في كل حادثةٍ ولست بال
 يقضي الحمى من حقهم ويوالي
 متجددًا يتعاقب الأحوال
 يغدو الفراق بها شبيهه وصال
 لا ينقضي بتحول الأحوال
 لو كان يُتصّف امرؤ بكمال
 غير المكاره فيه والأهوال
 عانيت في العَدَوَات والأصال
 من جهد أيام وشهد ليالي
 فيمن أهبت بهم مجيب سؤال
 زمننا من مسعد وموال
 لكن يرون له رفيق الآل
 في كل حل منك أو ترحال
 تلقي إلى نظر الحبوط بيال
 لا يثنى، وبلاء غير مبال
 دعواك آية ربك المتعالي
 مصر بعقبى دائك المتال

هم صفوة الدنيا وكانوا صفوها
 حزن بعيد الغور في قلبي فإن
 ماذا أقول وهذه أسماؤهم
 تعتادني في مَسْمعي أو ناظري
 إني لأحفظ عهدهم وأصونه
 وكان حسيّ حسهم فرحًا بما
 كم في مغارسهم جنى ألفيته
 سلوى أتاحتها مآثرهم، وقد
 وكذاك مجد العبقريّة والفدى
 أي مصطفى ما كنت كاملاً
 ماذا لقيت من الصّبا ونعيمه
 إني شهدت شهادة العينين ما
 متطوعًا نَسخُو بما يُفني القوى
 إذ قمت بالأمر الجسام ولم يكن
 حال التورع دون إغراء المنى
 والقوم في ظمأ ووعدك مطمع
 تسعى ويعترض السبيل قنوطهم
 فتظل تضرب في جوانبه وما
 لك دون ما تبغي مضاء مصمم
 حتى إذا وضح اليقين وصدقت
 فتويت أظهر ما تكون على عدى

بأشد منها هزة الزلزال
 آل وقد رُزئُوا عزيزز الآل
 أن الحياة مطالب ومعال
 لا يَسْتَطَإُ بها مَدَى الآجال
 متضافرين دوام تلك الحال
 برئت من الأحقاد والأوجال
 مستبسلين ضروب الاستبسال
 في يومه إحسان يوم خال
 متخضبا بدم الشباب الغالي
 لا أنت ساليه ولا هو سال
 في أفقه كالكوكب المتلالي
 ولزهرها المتألقات مجال
 وإذا نأت عنا فتلك لآلي
 وتجول في الأفكار كل مجال
 برج حللت به لغير زيال
 فالحال متصل بالاستقبال
 فرضت محبته على الأجيال
 عانتة في الأصفاد والأغلال
 ومذلل الآلام للآمال
 وخطيب ثورتها في الاستهلال
 في ملتقى ذي روعة وجمال

هزت منيتك البلاد ولم تكن
 فالقوم من جزع عليك كأنهم
 كشف الأسى لهم الحجاب فأيقنوا
 وتبينوا أن الخنوع مهانة
 لله حسن بلائهم لما أبوا
 وتوثبوا بعزيمة صدوقة
 يردون حوضا والمنايا دونه
 حتى أتى فتح يجلو حسنه
 فتح بدا اسمك وهو في عنوانه
 أيها شهيد الحب للبلد الذي
 أبهج بأوبتك السنية طالعا
 الذكر آفاق سحيقات المدى
 فإذا دنت منافتك عوالم
 تطوي من الأدهار ما لا ينقضي
 أبوار وجهك طالعتنا اليوم من
 قد أثبتتها مصر بين عيونها
 نهم الثواب لذي مآثر في الفدى
 فتیان مصر وعهدا غير الذي
 حيوا مديل حياتها من يأسها
 حيوا زعيم اليقظة الأولى بها
 هذي مواكبها وتلك وفودها

حفلت برمز نهوضها ومثاله
 لكنها مهج بتته ولم تكن
 وكفاه فخرًا أن ذاك المال لم
 رسم يُلوح وفيه معنى أصله
 لان الحديد له فصاغ لعينه
 كم في بليغ سكوته من عبرة
 هو خالدٌ ويظل مدره قومه
 عطف المليك وقد أماط حجابيه
 أعلى الملوك مكانة أرفعاهم

مالا تداني صنعه المثال
 إلا ذرائعها فضول المال
 يك مكس جاب أو تطول وال
 فيروع بين حقيقة وخيال
 أثرًا على الأيام ليس بيال
 أوفى وأكفى من فصيح مقال
 في كل نازلة وكل نضال
 رفع المقام إلى مقام جلال
 لمكانة العلماء والأبطال

كلمة الأستاذ محمود العمري

رسالة مصطفى كامل

اليوم إذ يحتفل المصريون برفع الستار عن تمثال مصطفى كامل، إنما يحتفلون بصفحة من أمجد صفحات تاريخ مصر الحديث.

اليوم يسجل المصريون صفحة مصطفى في تاريخهم الرسمي بعد موته بما يقرب من ثلث قرن، وهي مرحلة من الزمن، إذا أصدر الشعب حكمه، كان صادقاً غير متأثر بدعوة من الدعوات، وإذا حكم التاريخ بعدها لإنسان فإنما يكون ذلك لأنه صعد بعقيدته إلى مستوى الحقائق الأبدية التي لا يحدها زمان ولا مكان.

ولو كان مصطفى كامل رجلاً كسائر الرجال لنسيناه كما ينسى المرء أعزاه، ولو كان رجل جيل معين أو مرحلة معينة لعصفت به رياح الزمن؛ ولكنه رجل أمة، والأمة وحدة تاريخه تشمل الأمس واليوم والمستقبل الذي لا نهاية له؛ بل هو رجل

جميع الأمم، إذ لا يصح في إحداها ما لا يصح في غيرها من شبيهاها ما دامت جديرة بأن تسمى أمة.

وكيف يسمع المصري قول «سمجلي ريدز» قبيل الحرب مخاطبًا هتلر: «إذا كان عليك واجب نحو وطنك فلتعلم أن علي أيضًا واجبًا نحو وطني». ثم لا يشعر وكأنه يسمع قول مصطفى كامل إذ يقول: «إن كان أنصار التوسع في سلطنة إنجلترا ومد نفوذها في الآفاق يريدون جعل سادتها عامة، فكيف يجد البعض من الأمور الخارقة للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا؟».

ثم كيف يشاهد بطولة الفنلندي والبولندي ووطنيتها ولا يشعر بالفخار لقول مصطفى كامل في «اللواء» سنة ١٩٠٤م حاثًا على حب الوطن: «انظر تجد البولندي وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث، يجد ويعمل مفكرًا كل يوم بل كل لحظة في بولندا، يذكر تاريخها ويكي أيامها الخالية، ويربي ابنه على حبها والتمسك بحقوقها، والفنلندي وقد لبس ثوب الحداد هو وبقية ذويه يوم قررت الروسية ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة».

لم يجد مصطفى كامل مبلغ حب الوطن بمقدار ما في الإمكان عمله في خدمته؛ إذ إن الوطن صورة روحية، ولا سبيل للقوى المادية إلى النيل من الوطنية الصحيحة، فإذا عجزت الأمة الرشيدة عن الوصول إلى حقها لم تقل عن المرحلة التي لا تتخطاها جهودها في وقت معين أنها محط آمالها وغاية الوطنية، على حد قول القائل: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون».

ولم يقف بحق بلاده عند ما يمليه عليه إدراك معاصريه؛ بل عمل على رفع مستوى هذا الإدراك إلى مستوى رسالته، وكان مؤمنًا بمنطق الوطنية الذي يجعل حق الوطن كحق الفرد لا ينتهي إلا عندما يكون فيه حد لحقوق وطن آخر.

نشرت «النيويورك هيرالد» للمسيو سيمون في سنة (١٨٩٧م) مقالًا عن مصطفى كامل جاء فيه: «إن الوطن بيننا نحن الأوروبيين الراقين عظيم جليل محترم، مفضل على

الحياة والمال والولد، فما بالننا نحتقره عند غيرنا، ولا نود إلا أن نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا؟».

وقد علقت الجريدة على هذه الرسالة بكلمة جاء فيها: «ومن عرف أن مصطفى كامل ليس بغني كبير ولا وزير حكومة ذات سلطان، قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهيمهم التاريخ من حين إلى حين، إلى الأمم المضطهدة المظلومة ليهدها طريق السداد، وإنه إذا كان المصريون إلى اليوم في نظر الساسة لا يستحقون ما يتغون، فإننا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذي حادثه مراسلنا في الأستانة في العام الماضي، لا يقل علمًا عن أعظم سياسي في أمريكا وأوربا؛ ولكن لسوء حظ مصر أنه جاء في الزمن الذي بلغ فيه حب الحياة المادية مبلغًا عظيمًا.

لقد تصدى مصطفى كامل لما لم يتصد له الذين وقفوا موقفه من الأمم الأخرى؛ إذ كان عليه أن يدعو إلى تشييد كل شيء في صرح الوطنية، لذا كانت دعوته شاملة قام فيها بكل مقومات الحركات الوطنية مما يضطلع به في تلك الأمم رجال عديدون في مختلف نواحي نهضتها، فبعضهم ينهض بالتعليم الوطني، وبعضهم الآخر ينهض بالأدب الوطني وفريق ينهض بالفنون، وآخرون ينهضون بالإصلاح الديني أو الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، ثم تلتقي هذه الجهود جميعها عند غاية واحدة هي النهضة الوطنية العامة.

نعم كان على مصطفى كامل أن يقوم بما تقوم به أجيال في مختلف النواحي، فهو شاعر مصر الوطني، يتغنى بجمال منظرها واعتدال جوها، ويزداد هيامه بها كلما اشتدت عليها المحن، وكأنه قرأ ما قاله الشاعر الإنجليزي العظيم: «أحبك يا إنجلترا على كل ما فيك من عيوب» فكان يقول: «هل الوطنية فضيلة هناك ورذيلة هنا؟ هل إنجلترا أحق بحب بنيتها من مصر».

وهو المشبه لمصر بالأأم المريضة وحوها أبناءها تقول لهم: ألا فاسعفوني، وبالدار شبت فيها النيران تنادي بلسان الحال أربابها: أن اتحدوا في إطفاء اللهب.

وهو مربيتها الوطني بلسانه وقلمه، وبالذعوة إلى توجيه التعليم إلى المثل العليا التي لا يكون بدونها تعليمًا، وإلى إنشاء الجامعة والحث على الإكثار من المدارس لتعليم الشعب، قائلًا: «إن بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال في وجوههم أبواب العلم والنور، رءوسًا لو تحلت بالعرفان لكانت فخر مصر إلى أبد الزمان، وليذكر ذوو الإحساس والوجدان أن في مصر كنوز لم تستخرج للآن، وأنها لو أخرجت للناس لمئات الأرض نورًا، وأن هذه الكنوز مدفونة في بيوت الفقراء»، وهو مؤرخ مصر الوطني يذكر أبناءها كل آن بمجدها السالف وبتراث الآباء والأجداد.

وقد حصل مصطفى كامل على نصيب وافر من الثقافة الغربية، أتاح له وهو شاب أن يخطب ساعات باللغة الفرنسية ويكتب الافتتاحيات في أمهات صحف فرنسا، فلم يدفع به إمامه بمدينة الغرب إلى حب الفناء في دولة من دوله، بل كان مما قاله: «لا جرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصري من أوروبا هو الوقوف على قوة الإحساس الوطني في البلاد على اختلافها، فأهل تلك البلاد على تفرق مشاربهم وأهوائهم يحبون بلادهم حبًا شديدًا، ويستقبل الفرد منهم الموت في سبيل خدمة بلاده راضيًا مسرورًا». وهكذا لم يقل في قرارة نفسه: هذه بلاد عظيمة فيجب أن أكون عبدًا لها؛ بل قال بلسان الحال والمقال: هذه بلاد عظيمة فلا بلغن بوطني ما بلغت من رفعة وعلو شأن.

ولهذا كان أكبر المناضلين عن الإسلام بقوة بيانه، وكان فخورًا بمصريته وبأنه «ابن ضابط شهيم من أبناء الفلاحين»، ومما قاله في اعتزازه بقومه: «يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستبعد كالشعب المصري مما لا يليق بإنسان؛ ولكن أي شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء أمة سبقت كافة الأمم؟». وقال أيضًا: إن الوطنية تظهر فيما يعانیه الوطن من الشدائد لا في الرخاء.

كان مصطفى كامل يملك نفسه في مواقف الشدة، فأقام على من يتهمونه بالتطرف أقوى الحجج، على أن هذا التطرف لم يكن إلا التمسك بحقوق الوطن وأنهم لم يقصدوا بكلمة الاعتدال إلا التساهل في هذه الحقوق.

كان يهيب بالقوم إلى خدمة بلادهم خدمة إيجابية ويث فيهم أنه لا يكفي في شرعة الوطنية أن لا يؤذي الإنسان ووطنه؛ بل إن المرء لا يكون بريئاً من ذنب تأخر بلاده إلا إذا عمل على رفعته، وأن كل مصري مسئول عن مصر، وأنه لا يليق بأي إنسان أن يقول: إن هذا النصح صحيح ولكنه موجه إلى غيري؛ إذ الوطن موجود في ضمير كل شخص.

قال ردّاً على بعض من خشوا ألا تكون رسالته قد نفذت إلى قلوبهم لأنها رسالة عقيدة: «يقول البعض: إن المناادة بالوطنية كلام في كلام، ونسي ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر في إدخال عقائد جديدة في النفوس؛ لأن العقيدة تحرك الجبال، ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها، والتاريخ وأحكامه، والعوامل الفعالة في الشعوب كلها».

ولقد أصبحنا اليوم نذكر بذكر مصطفى كامل جميع الحقائق التي لمسناها في شئوننا، فإذا نظرنا في أحوالنا الاقتصادية، رأينا المصلحة الوطنية ماثلة أمام أعيننا، وإذا تصدينا لشئون التعليم وجدناها لا تستقيم في غير الوضع الوطني، وإن الفرد إذا أراد في أية ناحية من نواحي الحياة، أن يرفع من شأن نفسه لم يجد لذلك سبيلاً إلا برفع شأن الوطن.

محمود العمري

قصيدة أحمد محرم

هذا الذي شرع الجهاد لقومه

هتف البشير به، وحن الحينُ
وبدت مواكبه حساناً طلقة
ويحي، أنت انشق قبرك فانقضى
إن غبتَ عن نظر العيون هنيهة
ماذا تظن بك البلاد وأهلها
من أطق الأفكار من أوامها
أولم يقلوا: نكبة نزلت بنا
أله جنود حوله محشودة
هذا الذي بعث الشعور، وبثه
نادى: بلادي، فاستجابت أمة
تبغي الحياة عزيزة ويغظها
أبت القعود مع الخوالب بعدما
ومضى يزود اليأس عن آمالها
هذا الذي شرع الجهاد لقومه
إن المضلل في الحياة لمن يرى
هي ما رأيت، فكل شيء دونها
إننا وفينا للبلاد، فلم نحن
نسحو بأنفسنا، نريد حياتها

فأضاء وجهه، واستنار جبينُ
فشدا اللهب، وغرد المحزون
عبث الخطوب، ورأيا المأفون
فقلوبنا الحرى عليك عيون
تلك القيامة، لو يكون يقين
أيطل طول الدهر وهو سجين
هيهات يكشفها فتى مفتون
وبوارج مبعثة وسفين
ملء «الكنانة» والشعور دفين
ليست بغير هوى البلاد تدين
أن يُستباح من الليوث عرين
أخذ «اللواء» القائد المأمون
ويعلم الأحداث كيف تلين
فهدى الكتائب نهجه المسنون
أن الحياة وساوس وظنون
إن كنت تكره أن تُصام يهون
والدهر يظلم والخطوب تخون
إن صدَّ هباب، وكف ضنين

جوائز مصطفى كامل

١- المباراة الأدبية

لمناسبة حفلة إزاحة الستار عن تمثال (مصطفى كامل) تبرع الوطني الكريم الأستاذ «محمد محمود جلال» بمبلغ خمسين جنيهاً تعطى مكافأة لمن يجوزون قصب السبق في مباراة أدبية موضوعها (جهود مصطفى كامل في نواحي النشاط الإنشائي القومي وبخاصة في التعليم والاقتصاد والاجتماع، وعلاقة ذلك بدعوته الوطنية). وكانت شروط المباراة:

١- أن يكون المشترك فيها شاباً مصرياً لا تزيد سنه عن ثلاثين سنة.

٢- أن لا تزيد الكتابة في موضوع المباراة عن عشر صحائف من القطع الكبير.

٣- أن تقدم المواضيع إلى لجنة المباراة التي ألفت من: أنطون الجميل بك، عبد الرحمن الرافعي بك، فكري أباطة بك، الأستاذ محمود العمري، في مدة ثلاثة أشهر من تاريخ الإعلان عن المباراة. وقد وزعت الجوائز في حفلة فخمة أقيمت يوم (١٠ فبراير سنة ١٩٤١م)، وهو يوم الذكرى الثالثة والثلاثين لوفاة الزعيم، وفاز في المباراة كل من الأستاذ «نجيب تاوفيلس» الموظف بمصلحة السكك الحديدية، «علي منصور» الطالب بكلية الحقوق، الأستاذ «ليب السعيد» الموظف بتفتيش مراقبة القطن بالدقهلية، الأديب «محمد الخالد» ببني مزار.

٢- جائزة كلية الحقوق

وتبرع حفظه الله بجائزة أخرى (سنوية) قيمتها عشرة جنيهاً سميت (جائزة مصطفى كامل) تمنح كل عام لأول ناجح الليسانس في الدور الأول لكلية الحقوق، وهي الكلية التي بدأ بها الفقيد دراسته العليا، وأرسل إلى عميد الكلية خطاباً بذلك وأرفق به صورة الاعتماد الذي خصصه ببنك مصر عن قيمة الجائزة، وبموجبه يصرف

المبلغ في شهر مايو عن كل عام، فورد إليه خطاب رقيق من حضرة العميد مع قبول هذه الجائزة الكريمة.

٣ - جائزة كلية تولوز

وتبرع أيضًا بمبلغ ألفي فرنك لأول الفائزين في سنة (١٩٤٠م) بكلية الحقوق بتولوز، وهي الكلية التي أتم فيها الفقيه دراسته ونال منها شهادة الليسانس سنة (١٨٩٤م)، وكتب بذلك خطابًا إلى وزير فرنسا المفوض في مصر وأرفق به قيمة الجائزة، فتلقى خطابًا من الوزير المفوض بقبول الجائزة وشكره على هذه المبرة.

كلمة الأستاذ محمد محمود جلال في حفلة المباراة

وإننا نأشرون هنا كلمة الأستاذ «محمد محمود جلال» التي ألقاها في حفلة المباراة الأدبية؛ قال:

«سادتي الأجلاء: أيها المتسابقون النجباء.

حفظنا عن أستاذنا وزعيم الوطنية مصطفى كامل «أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها، وأن الروح الوطنية إذا تمكنت من كل مصري فتحت المدارس العلمية وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن في كل جهة وناحية، واتحدت الأمة في الغايات والمقاصد وازدادت ثروتها في المال والعلم والوطنية والوئام».

وإذا استجبنا بتوفيق الله إلى هذه الدعوة وهديت لها قلوبنا، وصبغت عليها أرواحنا، فإنها إليها يرد الإطراء الذي شرفني به زملائي وأصدقائي؛ لأن ما فكرت فيه وما قمت به نتيجة لاستيعاب هذه التعاليم التي مكنتها تضحيات فريد وأخلاق فريد، فرحمة الله في كل مناسبة على البطل الخالد الذكر «مصطفى كامل».

لقد استخرت الله قاصداً من هذه المباراة إلى تسابق الشباب من هذا الجيل إلى كدح أذهانهم وتوجيه أبحاثهم في سبيل المثل العليا واضحة الصورة في مصطفى كامل، وهي الوطنية الشاملة التي طبع الله عليها روحه.

جاءت هذه الكلمات على لسان مصطفى كامل لآخر عهده بخطاب جامع، فكانت وصية لها قيمتها وخلودها، كشف لنا كيف كانت الوطنية التي دعا لها وطنية عامة شاملة غير مقصورة على ما يسمى بالنشاط السياسي، ولو قصرت عليه لكانت سطحية غير منتجة، وكان تحديد الدعوة به تضييقاً على الطبيعة ومجافة لحقائق الوطنية وتضييعها لثمراتها.

أذكر لأحد كبار كتاب الغرب قوله: إن ما في الإنسان من قوة ليس ناتجاً عن اليد وحدها، وإنما هي فعل قوة البنية جميعاً ممثلة في اليد، فإذا استطعت أن تحمل ثقلاً عظيماً في يدك، فإنها تتأني لك القوة لأن القلب يقوم بوظيفته والمعدة تؤدي عملها، وكذا سائر أعضاء بدنك تتآزر في سبيل القوة التي كانت يدك مظهرها وأداة تنفيذها.

من أجل ذلك تطرقت الوطنية الممثلة في مصطفى كامل إلى ميادين العلم والتاريخ والاقتصاد وأوضاع المجتمع تحيها وتقومها على الغزار الوطني، ترأب أصداع القائم منها، وتقديم الجديد على الأساس القويم، محافظة عليها مما تتنوع به محاولات الخصم في هذه الميادين، فينشئ بالتعليم جيلاً يسيغ حكمه وبتزييف التاريخ يهدم من ثقة الشعب بنفسه ويهون عليه الوضع المراد كما يوغل في شئون الاقتصاد يوطئها لغير المصلحة الوطنية ويوجهها إلى نفعه بحيث تعد في الإنتاج والاستيراد مرتبطة به بفعل الزمن من حيث لا تدري، ثم يعمد إلى مصطلحات الاجتماع يبهظ كاهلها بتقاليد جديدة منحرفة وإذاعات وصياغات جديدة تجر بضعايف النفوس إلى ناحيته، وبكل هذه الوسائل مجتمعة يصل إلى خلق الوهم في الشعب، ثم إلى أن يكون أداة السيطرة عليه، حتى إذا رجع القوم إلى حال اطمأنوا إليها زمنًا ظنوا في حضانتها أنهم غير جديرين بغيرها وظنوا البعض منهم نعمة وطويت الثقة بالنفس.

ولنستمع هنا مرة أخرى لوصية (مصطفى كامل) في هذه النتيجة التي كانت أخشى ما خشي على بلاده: إن كل قول أو عمل يؤدي إلى إضعاف الروح المعنوية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها وبمستقبلها هو أكبر أذى يلحق البلاد».

فمصطفى كامل حريص لدعوته ولنجاحها على المثل الأعلى للفرد ولشعب وادي النيل، وهو لذلك يضيف على كل ناحية من مسالك الدعوة ما ينفي عنها الأشواك الغريبة والهبات التي تسيء إلى المستوى المرتقب لأمته، فالاستقلال عنده إذن غاية تركز لها الجهود ويعني بها الفكر وتثمر الظروف بقدر ما هو وسيلة لا بد منها للنهوض بالنواحي المختلفة، وتمكين الأمة على الأسس الصحيحة من كل مرافق الحياة على الوضع الذي يلائمها هي دون تعلق بغيرها. على أن مصطفى لم يعلق مطالبته بالاستقلال على بلوغ الغاية في تلك النواحي كما هو الحال في الأمم المستقلة؛ لأنه لا يرتب الحق الطبيعي في الحرية على مستوى معين تكون الأمة ملزمة بإثباته أمام الغير، متى كان ذلك الغير هو المتحكم في وسائل نهوضها. وإن لجهاد مصطفى في جميع هذه النواحي معنى لا يسمو عليه أي معنى من المعاني التي يعيش الأبطال لتحقيقها وتمثيلها؛ إذ كان دليلاً على فناءه في المثل الأعلى فناء تاماً مع تشعب جهوده في جميع نواحي الوطنية على ترامي أطرافها ونفوذ إشعاعها جيلاً بعد جيل، أقول: إن هذا المعنى المتجلي في ذلك الرجل أو ذلك المثل الأعلى الممثل في رجل دليل على أنه لم يعيش عيشة الرجال المحدودة بأشخاصهم وأعمارهم.

سادتي: ترون اليوم بينكم هذا الرهط الكريم من الشباب الذي تنبأ به مصطفى كامل وعمل له، يكذب ويتعب ليضع يده على كنوز الفقيه في جهاده المدخر لأمته وينفقرون من وقتهم منبئين في نواحي البلاد في زمن عز فيه الميل إلى البحث، ألا إن المرء إذا عظمت قوة روحه فترامت نواحيها وانبعثت أضواؤها في المدى، تناولت جميع الأرجاء وامتدت في الزمان فشملت آثارها ومراميتها مستقبل الأيام.

إن رجلاً كهذا ليس برجل عادي؛ ولكنه تيار من تيارات التاريخ، وقوة من قوى البشرية الخالدة. هذا هو مصطفى كامل الذي نحتفل اليوم بذكراه.

ضريح مصطفى كامل

أقيم ضريح مصطفى كامل القديم في المدفن الذي شيده الزعيم لوالدته بشوارع المغافر بمدافن الإمام الشافعي، وقد شيعها إلى مرقدها الأخير سنة (١٩٠٧م)، ودفن إلى جوارها سنة (١٩٠٨م)، ومن يومئذ لم تعمل يد في إصلاح هذا المدفن أو تجديده، حتى أخذ التصدع يظهر في سقفه وجدرانه سنة (١٩٣٩م)، وصار يخشى على الضريح الطاهر أن يستهدف للأمطار والأعراض الجوية في شتاء ذلك العام، ففكرت مع لفيف من إخواني في تدارك هذا التصدع، وألفنا في أواخر سنة (١٩٣٩م) لجنة لإصلاح الضريح، وتم لها جمع مبلغ يسير اكتب به بعض تلاميذ الفقيد وأنصاره والمعجبين به، فرمنا ضريحه ترميمًا جزئيًا، ولم يعد مع ذلك في حالة تليق بمكانة الزعيم، فاقترحت في مجلس الشيوخ بجلسة (١٠ مايو سنة ١٩٤٤م) لمناسبة نظر ميزانية وزارة الأشغال اعتماد مبلغ خمسين ألف جنيه لتشييد مدفن جديد يضم رفات الزعيم، وقلت في هذا الصدد ما يأتي (نقلًا عن مضبطة الجلسة):

«أرجو أن تسمحوا لي من وقتكم بخمس دقائق لأعرض اقتراحًا بمناسبة نظر ميزانية وزارة الأشغال العمومية، وأريد أن أشرح هذا الاقتراح أولاً كي أمهد الطريق إلى عرضه.

وضعت الحكومة سنة حميدة في السنوات الأخيرة وهي تخليد ذكرى عظماء الرجال، ولذلك أقرت فيما يتعلق بتخليد ذكرى المغفور له سعد زغلول باشا عدة مشروعات منها تشييد ضريح له وإقامة تماثيل أحدهما بالقاهرة والآخر بالإسكندرية، وأنفقت الحكومة على توالي السنين مبالغ كبيرة لتخليد ذكراه، وعلى ما أذكره أن الضريح قد تكلف لغاية الآن حوالي (٢٠٠,٠٠٠ ج)، وهذا بالطبع تنفيذًا للسنة الحميدة التي اتبعتها الحكومة، وأمس فقط عرضت علينا مشروع قانون بفتح

اعتماد إضافي بمبلغ (٢٧٠٠٠ ج) في ميزانية هذا العام لشراء منزل المغفور له سعد باشا في مصر «بيت الأمة»، والمنزل الذي ولد فيه الفقيد بإيانه وضمهما للمنافع العامة، كل هذا عمل حميد تشكر عليه الحكومة، وهذا ما شجعني على أن أتقدم لحضراتكم باقتراح تخصيص مبلغ (٥٠٠٠٠ ج) في ميزانية وزارة الأشغال لتشييد ضريح للمغفور له مصطفى كامل باشا؛ لأن ضريحه لا يزال حالته كما بناه لوالدته سنة (١٩٠٧ م) إذ توفيت في السنة المذكورة، فبنى هذا الضريح لها، ثم عاجلته المنية في (١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ م) فدفن إلى جوار والدته في القبر الذي بناه لها، ومن يومئذ لم تفكر حكومة من الحكومات المتعاقبة في أن تشيد الضريح الذي يليق بالزعيم الأول الذي بعث الحركة الوطنية من مرقدها، ولعل القدر قد باعد بين الحكومات المتعاقبة وبين القيام بهذا الواجب، فاتباعاً للسنة التي جرت عليها الحكومة في تخليد ذكرى سعد أتقدم باقتراح إضافة مبلغ (٥٠٠٠٠ ج) في ميزانية وزارة الأشغال لتقييم ضريحاً للمغفور له مصطفى كامل؛ ذلك أن تقدير عطاء الرجال هو فعلاً واجب محتم ومقدس؛ ولكن أجمل من هذا الواجب أن يكون تقدير هؤلاء العظماء عامّاً وشاملاً، أساسه العدل والإنصاف، فإذا كانت الحكومة قد أدت واجبها نحو سعد زغلول فأرجو أن تؤدي واجبها نحو مصطفى كامل. إن ضريح مصطفى كامل يا حضرات الزملاء الأعراء قد آل إلى حالة لا تتفق ومكانة الزعيم الأول للحركة الوطنية، ولا تتفق مع حسن تقدير البلاد لعظمتها الراحلين، وأرجو إذا كان من حضراتكم من يريد أن يستوثق من هذا الحال أن يتفضل بزيارة هذا الضريح، ولعل الوقت قد آن لكي تعمل الحكومة عملاً - ولنعمل نحن أيضاً عملاً - يمكن أن نسد به هذا النقص الكبير، ولا أريد أن أطيل في التذليل والبيان في هذا المقام، ولكنني أستسمح حضراتكم في أن أتلو على مسامعكم كلمتين للمغفور له سعد زغلول في تقدير المغفور له مصطفى كامل.

«رئيس المجلس (على زكي العرابي باشا) لا ينازع أحد في ذلك». عبد الرحمن

الرافعي بك.

قال سعد زغلول رحمه الله في خطبته بالسراوق يوم (١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣م):

«لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطباءكم، لا أقول ذلك ولا أدعيه؛ بل لا أتصوره، إنما نهضتكم قديمة تتدئ من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد علي، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل عزيز فيها، وكذلك المرحوم فريد بك».

وقال في خطبته بفندق شبرد يوم (٢٠ إبريل سنة ١٩٢١م):

«إني أعمل أن البلاد تصبو إلى الاستقلال، وأن حركتها الاستقلالية بدت من زمن طويل خصوصًا من يوم أن ظهر فيها مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك، هؤلاء أسسوا وأيدوا ما أسسوا في النهضة الحاضرة».

فواجب تقدير الزعماء يا حضرات الزملاء الأعزاء يقتضينا أن نقدرهم جميعًا، وأن يكون تقديرنا مبناه العدل والإنصاف، فإذا كانت قد مضت هذه السنوات الطويلة ولم تفكر حكومة من الحكومات في إصلاح هذا الضريح أو تشييده أو تعميره، فأظن أن الوقت الحالي هو أنسب الأوقات لكي نتلافى ما فات الحكومات السابقة، لذلك أتقدم بهذا الاقتراح، وأرجو من حضراتكم الموافقة عليه.

وزير الأشغال العمومية (عثمان محرم باشا) يسرني أن أقرر لحضرة الشيخ المحترم عبد الرحمن الرافي بك أنني أول من يحترم ذكرى المرحوم مصطفى كامل باشا، وقد كانت تجمعني به صلات شخصية، وأقرر أن حكومة الوفد تسير على سياسة المغفور له سعد زغلول باشا تعرف فضل مصطفى كامل باشا، وأقول: إنه لا داعي لإضافة المبلغ الذي يطلبه حضرة الشيخ المحترم عبد الرحمن الرافي بك لتشيد ضريح المغفور له مصطفى كامل باشا إلى ميزانية وزارة الأشغال؛ لأن في الميزانية الحالية مبالغ تسمح بتنفيذ ما يطلبه حضرة الشيخ المحترم، وأعد لحضرتة بتنفيذ اقتراحه في ميزانية السنة الحالية فورًا (تصفيق عام).

وقد وضعت الحكومة من يومئذ تصميم المدفن الجديد، وأقيم في ميدان صلاح الدين بجوار القلعة، وتم تشييده في أواخر سنة ١٩٤٩ (انظر صورته ص ٣١٩).

أما ضريح محمد فريد القديم فهو في مدفن العائلة بجوار مقام السيدة نفيسة رضي الله عنها، وقد أقيم القبر على عجل، بقي طوال السنين عرضة للعراء والأمطار في حالة لا تتفق ومنزلة الزعيم الشهيد الذي ضحى في سبيل مصر بهاله وصحته ونفسه وحياته، وقد اقترحت أن ينقل إلى جوار مصطفى كامل، فقرر مجلس الوزراء في (١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٩م) نقل رفات المرحوم محمد بك فريد إلى جوار مصطفى كامل بالمدفن الجديد، وهكذا يتاح للزعميين العظميين والصادقين الوفيين أن يلتقيا بعد طول النوى، ويضمهما قبر واحد، بعد أن فرق الزمن بينهما نيفاً وأربعين سنة، وأصبح الضريح الجديد: ضريح مصطفى وفريد^(١).

الاحتفال بنقل رفات مصطفى كامل إلى الضريح الجديد (١٠ فبراير سنة ١٩٥٣م)

وقررت حكومة الثورة (ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢م) تقديراً للزعيم مصطفى كامل الاحتفال بنقل رفات من مدفنه الأول بحي الإمام الشافعي إلى ضريحه الجديد، وحددت لهذا الاحتفال يوم (١١ فبراير سنة ١٩٥٣م).

و(١١ فبراير) هو يوم ذكرى تشييع جنازة الزعيم لأول مرة سنة (١٩٠٨م)، ففي مساء (١٠ فبراير سنة ١٩٥٣م) نقل رفات من مدفنه إلى دار اللواء بشارع الدواوين (مدرسة مصطفى كامل الأميرية الآن) ووضع الجثمان الطاهر في الغرفة التي لقي فيها ربه.

وفي عصر اليوم التالي - ١١ فبراير سنة ١٩٥٣م - شيعت الأمة جنازة الزعيم للمرة الثانية من دار اللواء إلى مدفنه الجديد في احتفال مهيب اشتركت فيه الحكومة

(١) ضم الضريح رفات المؤلف «عبد الرحمن الرافي» حيث دفن جثمانه به يوم (٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦م) غداة يوم وفاته.

والشعب، وكان يومًا مشهودًا، فقد مضت خمس وأربعون سن على انتقاله إلى الرفيق الأعلى حتى سنة (١٩٥٣م)، لقد تعاقبت السنون والأيام على وفاته وزادت مبادئه رسوخًا، وذكراه خلودًا، وكذلك شأن المبادئ الصالحة والأفكار السامية التي تنهض بالأمة والإنسانية تزداد على مر الزمان ذيوغًا وثباتًا واستقرارًا.

الاحتفال بنقل رفات محمد فريد إلى جوار مصطفى كامل (١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣م)

وقررت حكومة الثورة أيضًا الاحتفال يوم (١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣م) بنقل رفات الزعيم محمد فريد إلى جوار زميله في الجهاد مصطفى كامل: في هذا اليوم احتفلت مصر في موكب رائع بنقل جثمانه من مدفنه الأول بحي السيدة نفيسة إلى جوار الزعيم الأول، لقد فرق الموت بينهما طوال السنين، منذ وفاة مصطفى كامل سنة (١٩٠٨م)، وبقي محمد فريد يحمل الراية من بعده ويواصل الجهاد الذي بدأه مصطفى كامل، حتى أضناه الجهاد وانتقل إلى الرفيق الأعلى في (١٥ نوفمبر ١٩١٩م)، وظل الزعيمان الوفيان بعد وفاتهما تفصل بين جثمانيهما الأيام والأعوام، حتى اجتمعا في مقام واحد، يضمهما قبر واحد، التقيا بعد طول النوى، فعليهما وعلى الشهداء السلام!



الضريح الجديد، لمصطفى وفريد - ميدان صلاح الدين، بجوار القلعة
نقل إليه رفات مصطفى كامل في فبراير ١٩٥٣، ونقل إليه رفات محمد فريد في نوفمبر ١٩٥٣ وبقوارها
ضم جثمان المؤلف «عبد الرحمن الراغب» في ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦.